د. عائض القرني

إمبراطور الشعراء

الشاعر الأسطورة

مكتبة العبيكان

إمبراطـــور الشــعراء

«الشــاعر الأســطورة»

د/ عائض القــرني

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القرني، عائض بن عبدالله

إمبراطور الشعراء. ـ الرياض.

٢٠٠ص؛ ١٧X ٢٤ سم.

ردمك: ٩ ـ ١١٨ ـ ٤٠ ـ ٩٩٦٠

١ـ الشعر العربي ـ نقد ـ العصر العباسي الثاني ٢ ـ المتنبئ، أحمد بن الحسين، ت ٣٥٤هـ أ ـ العنوان

ديوي ٨١١،٥٠٠٩ ٤٩٢٧ / ٢٢

رقم الإيداع: ٤٩٢٧ / ٢٢ ردمك: ٩ ـ ١١٨ ـ ٤٠ ـ ٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩



الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

في بلاط الإمبراطور

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، وأصلي وأسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن بسنته اهتدى.

أما بعـــد:

فتحية طيبة يا أبا الطيِّب فقد حسونا كأس سحرك حتى ثملنا بياناً، أما أبياتك فالنجوم ضياءً ورفعة، وأما قصائدك فالحدائق بهجة ونضرة.

من أين جئت يا أستاذ القافية، وكيف وصلت يا فيلسوف الإبداع.

لقد عاش قبلك وبعدك آلاف الشعراء الذين ملؤوا الفضاء ضجيجاً، والكون صياحاً، ثم ماتوا وماتت أصواتهم، وبقيت أنت منشداً للدهر عازفاً على نياط القلوب كما قلت أنت:

وما الدهر إلا من رواة قصائدي ... إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

لقد عرفتك من ثلاثين سنة فكنت معي حضراً وسفراً، أتمثل أبياتك، أنشد قصائدك، أحفظ ديوانك، ولكن ذنبك أنك زهدتني في غيرك من الشعراء، وعذرك أنك سطعت ولمعت وأبدعت.

يا أبا الطيِّب، أخذنا من قصائدك ما كان شاهداً ومثلاً وحكمة وعبرة، وتركنا غلوك وهجاءك وصخبك، وعسى الجيل أن يعود للبيان العربي ليفهم كتاب ربه وسنة نبيه ﷺ حق الفهم، لأن الوحي هو المقصود بالتدبر والتأمل والدراسة؛ أما ما سواه فوسائل وأدوات فحسب:

قواصد كافور توارك غيره ... ومن قصد البحر استقل السواقيا

د. عائض القرني

المتنبــــئ

عائض القرني

حـــســبـك الله لـم تـزل تـتــحـــدا ... مـــا رهـبـت المنون أو هـبـت جـنـدا

أنـت كـــالـدهر والقـــوافي لـيـــال ... تـبـتـنى بـالقـــريض في الـنـاس مـجـدا

أرجـــفـــوا : مـــات ! قلـت لا أمـــوت ... قـالوا : قد مـضـى ، قلـت بل زماني تبـدا

نـبـــشـــوا فـــيك عــبـــقـــرياً أديبـاً ... حـــركــــوا فــــيك مــــارداً بل ألـدّا

أشــعلوا منك في الدياجي نجـومـا ... أحـرقـوا فـيك غـيظهم فـاستـبـدّا

كلـهم قـــاتلٌ وكـل الـضـــحـــايـا ... أنـت يا مـــالئ الـفـــيـــافي جـــداً

أنعلوا خـيـلك الأفـاعي فـهـابت ... كل أفـــعـى ذاقـت من الـسـم وردا

أصلتـوا في عـيـونك الموت سـيـفـا ... أغـمـدوا في حـشـاك رمـحـاً مـعـدا

كـــيـف أفلتَّ والـصـــحـــاري زؤام ... والمنـايا خـــرسٌ وقـــد جـــئت فـــردا

أي لـيـل ركـــبـت ؟ أين الأعـــادي ... فـــتـــهـم يا عـظـيـم مـــعـنى وبعـــدا

أنت في الشـام أم وصلت عـمـاناً ... أم وردت الـعـــــراق أم زرت نجـــــدا

عند من أنزلوك عـند ابن مـــوسى ... أم ســعــيـد وابن العـمـيـد المفـدّى ؟

عند كـافـور أصـبح العـبـد حـرا ... أم عليٍّ ذا الحـــر أصـــبح عـــبـــدا

أم تريد الحياة أم أنت صبٌّ ... يعشق الحسن كاتماً ما تبدّى

هل رأيت القرود حولك أسدا؟ ... أم تخيلت طلعة الليث قردا؟

وعلى من تُلقي القريض شجياً ... وإلى من تهدي من الشعر وردا؟

أنت يا ملبس السلاطين عزا ... أنت يا كاسي الصعاليك بردا

أنت يا مشعل الزمان أرحنا ... قال دعني أذكيه برقا ورعدا!

عشت بالعزّ مؤمنا لا يداجي ... ومن الذلّ كافراً مرتدا!

بصّر العمي أسمع الصمّ شعرا ... علّم الضاد تركماناً وكردا

بك ينوي الممات أن يتعشى ... قال: كلا أنا به أتغدى!

تُلبس الشور مَطْرَفاً وهو أعمى ... كي تراه أصمى وأطغى وأردا!

تحرق النذل بالقريض فيبقى ... خائباً خاسراً حقيراً مُردّا

لم تبال ركبت أدهم ضاف ... أو قطعت الصحراء سعياً وشدّاً

أو لقيت الخطوب في ثوب هول ... أو حضنت الأيام عزاً وسعدا

أو ملأت القلوب فيك ابتهاجاً ... أو نقشت الصدور غلاً وحقدا

أترجّى وصال أهيف غرٌّ ... قال: كلا طلقت سلمى ودعدا

كل شبر مصائب تتلظى ... كسيوف بواتر بل أحدّا

تطلب الثـــأر في حنايا عظيم قــدّ أعناقــهــا بجنبــيــه قــدّا

أنت يا بن الحــسين أكــبــر لغــز في بلاط الملوك تُـروى وتـهـــدى

كـــيف أنهي الخطاب فــيك وأجلو عن معانيك؟ قال لي: كيف تبدا؟

وردة من دم المتنبئ

للشاعر/ عبدالله البردوني

مِن تلظي لموعه كاد يعمى — كاد مِن شهرة اسمه لا يُسمىٰ

جاء مِن نفسه إليها وحيداً — رامياً أصلهُ غباراً ورسما

حاملاً عمره بكفيه رمحاً — ناقشاً نهجه على القلب وشما

خالعاً ذاته لريح الفيافي — ملحقاً بالملوك والدهر وصما

***

ارتضاها أُبوَّة السيف طفلاً — أرضعتهُ حقيقة الموت حُلما

بالمنايا أردى المنايا ليحيا — وإلى الأعظم احتذى كل عظمى

***

عسكر الجن والنبوءات فيهِ — وإلى سيف (قُرمطٍ) كان يُنمى

***

البراكين أُمّه، صار أمّاً — للبراكين، للإرادات عَزْما

(كم إلى كم، تفنى الجيوش افتداءً — لقرودٍ يفنون لثماً وضمّا)

***

ما اسم هذا الغلام يا بن مُعاذٍ؟ — اسمه (لا): مِن أين هذا المسمى؟

إنه أخطر الصعاليك طُراً — إنه يعشق الخطورات جمّا

***

فيه صاحت إدانة العصر : أضحى حكَماً فوق حاكميهِ وخصما
قيل : أردَوه، قيل : مات احتمالاً قيل : همَّت به المنايا، وهمَّا
قيل : كان الردى لديه حصاناً يمتطيهِ برقاً، ويبريه سهما
الغرابات عنه قصَّت فصولاً كاللتي أرّخت (جديساً) و(طسما)

***

أورَق الحبر كالربى في يديهِ أطلعَت كل ربوةٍ منه نجماً
العناقيد غنَّت الكاس عنهُ الندى باسمه إلى الشمس أومى

***

هل سيختار ثروةً واتّساخاً؟ أم تُرى يرتضي نقاءً وعُدما؟
ليس يدري، للفقر وجهٌ قميءٌ واحتيال الغنى مِن الفقر أقما
ربما ينتخي مليّاً، وحيناً ينحني، كي يصيب كيفاً وكمَّا
عندما يستحيل كل اختيارٍ سوف تختارهُ الضرورات رغما
ليت أن الفتى ـ كما قيل ـ صخرٌ لو بوسعي ما كنت لحماً وعظما
هل سأعلو-فوق الهبات كمِيّاً؟ جبروت الهبات أعلى وأكمى

***

أنعلوا خيلهُ نُضاراً ليفنى سيد الفقر تحت أذيال نُعمى
(غير ذا الموت أبتغي، مَن يُريني غيرهُ لم أجد لذا الموت طعما
أعشق الموت ساخناً، يحتسيني فائراً، أحتسيه جمراً وفحما
أرتعيهِ، أحسّه في نيوبي يرتعيني، أحسّ نهشاً وقضما)

***

وجدوا القتل بالدنانير أخفى — للنوايا، أمضى مِن السيف حسما

ناعم الذبح، لايعي أي راءٍ — أين أدمى، ولا يرى كيف أصمى

يشتري مصرع النفوس الغوالي — مثلما يشتري نبيذاً ولحما

يدخل المرء مِن يديهِ وينفي — جسمه مِن أديمهِ وهو مغمى

يتبدّى مبغىً هنا، ثم يبدو — معبداً ها هنا، وبنكين ثَمّا

يحملُ السوق تحت إبطيه، يمشي — بايعاً شارياً، نعياً ويُتما

مَن تُداجي يابن الحسين؟ (أداجي — أوجهاً تستحق ركلا ولطما

كم إلى كم أقول ما لست أعني؟ — وإلى كم أبني على الوهم وهما؟

تقتضيني هذي الجذوع اقتلاعاً — أقتضيها تلك المقاصير هدما)

***

يبتدي يبتدي، يُداني وصولاً — ينتهي ينتهي، ويدنو ولمّا

هل يرى غير ما ترى مقلتاهُ؟ — (هل يُسمّي تورّم الجوف شحما)؟

***

في يديهِ لكل سِينَين جيمٌ — وهو ينشقّ: بين ماذا وعمّا

لا يريد الذي يوافيه، يهوى — أعنف الاختيار: إمّا، وامّا

كل أحبابهِ سيوفٌ وخيلٌ — ووصيفاتهُ: أفاعٍ وحمّى

***

(يا ابنة الليل كيف جئتِ وعندي من ضواري الزمان مليون دهما؟
الليالي ـ كما علمت ـ شكولٌ لم تزدني بها المرارات عِلما)

***

آه يابن الحسين: ماذا ترجِّي؟ هل نثير النقود يرتد نظما؟
بحفيف الرموز ترمي سيوفاً عارياتٍ: فهل تحدَّيتَ ظلما؟
كيف تدمى ولا ترى لنجيعٍ حمرةً تنهمي رفيفاً وشمًّا؟
كان يهمي النبات والغيث طلٌّ فلماذا يجفّ والغيث أهمى؟
ألأنَّ الخصاة أضحوا ملوكاً زادت الحادثات، وازددن عُقما؟

***

(هل أقول الزمان أضحى نذيلاً؟ ربما قلت لي: متى كان شهما؟
هل أسمِّي حكم الندامى سقوطاً؟ ربما قلت لي: متى كان فخما؟
أين ألقى الخطورة البكر وحدي؟ لست أرضى الحوادث الشمط أمًّا
أبتغي يا سيوف، أمضى وأهوى أسهماً مِن سهام (كافور) أرمى)

***

شاخ في نعله الطريق، وتبدو كل شيخوخةٍ، صبيٌ مدلهمًّا
كلما انهار قاتلٌ، قام أخزى كان يستخلف الذميمُ الأذمّا
هل طغاة الورى يموتون زعماً ـ يا منايا ـ كما يعيشون زعما؟
أين حتمية الزمان؟ لماذا لا يرى للتحول اليوم حتما؟

هل يجارى، وفي حناياه نفسٌ أنِفَت أن تحلّ طيناً مُحمَّى؟

(ساءلت كل بلدةٍ: أنت ماذا؟ ما الذي تبتغي؟ أجلّ وأسمى

غير كفّي للكاس، غير فؤادي لعبةٌ في بنان «لَميا» و«ألمى»)

***

كيف يرجو أكواز بغداد نهرٌ قلبُه وحدهُ مِن البحر أطمى؟

كان أعلى مِن (قاسيون) جبيناً مِن نخيل العراق أجنى وأنمى

للبراكين كان أمّاً: أيُمسي لركام الرماد خالاً وعمّا؟

***

(حلبٌ يا حنين، يا قلب تدعو لا ألبّي، يا موطن القلب مهما..

أشتهي عالماً سوى ذا، زماناً غير هذا، وغير ذا الحكم حكما

أين أرمي روحي وجسمي، وأبني لي، كما أستطيب روحاً وجسما؟)

***

خفّف الصوت للعدا ألف سمعٍ : هل ألاقي فدامة القتل فدما؟

يا أبا الطيّب اتئد: قل لغيري : اتخذ حيطةً: على مَن ومما؟

كلهم (ضبّةٌ) فهذا قناعٌ ذاك وجهٌ سمّى تواريه حزما

***

(الطـريق الذي تخيَّـرت أبـدى   وجـــه إتمامــهِ، أريـدُ الأتمَّا
متُّ غمّاً: يا درب «شيراز» أورق   مِن دمي كي يرفّ مَن مات غمّا
وانفتح وردةً إلى الريح تُفضـي   عن عدوّ الحِمَام كيف استجمَّا)

***

أصبحَت دون رجله الأرض، أضحى   دون إطلاق برقـه، كلُّ مرمـى
هل يصافي؟ شتى وجوه التصافي   للتعادي وجـهٌ وإن كان جهمـا
أين لاقى مـودّةً غيـــر أفعـــى؟   هل تجلّى ابتسامةً غير شرمى؟

***

أهلُـهُ كل جـذوةٍ، كل بـــرقٍ   كل قفر في قلبه، وجه «سلمى»
تنمحـي كلهـا الأقاليـم فيـــهِ   ينمحي حجمهُ، ليزداد حجمـا
تحت أضلاعه «ظفارٌ» و«رضوى»   وعلى ظهـرهِ «أثينـا» و«رومـا»
يغتلي في قذاله «الكرخ» يرنــو   مِن تقاطيع وجهـه «باب توما»

***

التعاريـف تجتليــهِ وتغضـــي   التناكيـر عنــه ترتـدّ كلمـــى
كلهــم يأكلونَــهُ وهــو طــاوٍ   كلهـم يشـربونـهُ وهـو أظمـا
كلهــم لا يرونـــهُ وهــو لفـحٌ   تحت أجفانهم مِن الجمر أحمى
حاولو، حصرهُ، فأذكوا حصاراً   في حناياهمــو يُدمّـي ويَدمى
جرَّب الموت محوهُ ذات يــومٍ   وإلى اليـوم يقتـل الموت فهمـا

قصتي مع البيان

كنت في الصبا أعجب بالكلمة الجميلة، أنصت لها، أتمتع بحسنها، يشدني جرسها، يخلبني سرها، يدهشني أسرها، أسمع الكلمة البليغة من النثر والشعر فأجد لذة في سماعها، وتغمرني فرحة في تأمل بيانها، فالبيان سواء كان قرآناً أو حديثاً أو شعراً أو رواية هو منتهى الإبداع لدي، وأحياناً أتناول كلمات من القرآن فأقرأ ما كتب عنها المفسرون والبلاغيون ثم أعود بنفسي متأملاً متفكراً متدبراً، فأجد لها في أعماقي معانيَ لا أستطيع أحياناً أن أعبر عنها بلساني، وكم هي الآيات التي هزّت كياني، وحركت أشجاني، وزلزلت أركاني، وقد تكون هذه الآيات وعظاً، أو قصصاً، أو حواراً، أو خطاباً، أو وصفاً، المهم أنني أعيش مواقف من التأثر لروعة البيان وجمال الخطاب.

وفي عام ١٤٠٠هـ كنت مع سماحة الشيخ الإمام العلامة/ عبدالعزيز بن باز في جازان لافتتاح مخيم دعوي هناك، وبدأ الحفل بآيات من أول سورة فُصِّلت، قارئها طالب جميل الصوت، حسن الأداء، رخيم النغمة، وكنت قريب عهد بقراءة السيرة، وقصة السورة؛ فتأثرت وأنا جالس بين الناس وأصابني اندهاش، ودعيت بعدها بفقرتين لإلقاء قصيدة؛ فلما ألقيت ما يقارب عشرة أبيات وكانت أربعين بيتاً لم أستطع المواصلة، وشعرت بتعب وإعياء، فقطعت الإلقاء فجأة وجلست، وكان الموقف لافتاً للنظر، وما ذاك إلا لما بقي في نفسي من تأثر بالغ أثّر على مشاعري وعواطفي.

وصلينا في الحرم المكي صلاة التراويح فرفع الإمام صوته بقوله تعالى:﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ.. ﴾ الآية [محمد: ١٩]، وارتج الحرم بالصوت، ولكنه بلغ الأعماق فلا أدري هل أعجب من هذا البيان الآسر، أم من هذه الفخامة والإشراق والإعجاز، أم من هذا الصدق واليقين والعدل؟!

كنت أقف على بعض الجُمل من القرآن فأفصلها كلمة كلمة كما يفصل الدر من عقده، والجوهر من خيطه، وقفت مرة عند قوله تعالى:﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ [ق: ١٠] فتأملت كلمة (باسقات) وجمالها، فإذا لها مدلول غير مدلول طويلات؛لأن الباسق الطويل في حسن ورواء، وكذلك كلمة: (طَلْع) كيف اختارها من بين كلمة ثمر وحب وتمر ورطب وبسر ونحوها وكلمة: (نضيد) وما فيها من جمال ودلالة وإشراق يذكرك بالعقد الزاهي من الجوهر.

وقرأت قوله تعالى عن كتابه: ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[فصلت:٤٢] فهزني هذا الكلام الجليل، ثم عدت إلى مصطفى صادق الرافعي، فإذا هو مندهش لهذه الآية، مأسور لجزالتها وفصاحتها. ومرت به آية: ﴿ ..فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ.. ﴾[سبأ: ١٩] فوقف متأملاً صامتاً منبهراً من هذه الإجادة والإيجاز والإعجاز، ثم طالعت مذكرات الإبراهيمي الجزائري فإذا هو يدبج أروع الكلام عن هذه الآية، ويعلن اندهاشه من هذا الكلام المشرق السامي الراقي.

وعشت مع سورة الجن، فكأني في عالم الحنين والأنين، يبهرني اللفظ ويأسرني المعنى، وتذهلني الفصاحة، ويهزني الإعجاز، ثم أعذر الجن وهم يقولون ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾، واقرأ كلام سيد قطب فإذا هو يعيش تلك اللحظات من الانبهار والاندهاش لهذا الكلام، وكم هي الآيات التي أوقفتني وسلبت لبي، وذهب بي الإعجاب بها كل مذهب، وتمنيت أن عندي من البيان ما يعبر عما يدور بخلدي من معان كامنة مستورة في الحشا، وكنت أردد آية:﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]، فأعيد النظر فيها وأعرضها على بعض الأصدقاء ليشاركني هذه المتعة، ثم أجد عبدالقاهر الجرجاني يبسط الكلام عن إعجاز هذه الآية ووجه البيان والبديع فيها.

ووقفت عند آية:﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ..﴾ [المائدة: ٦٤]، فعجبت لقوة هذا الحديث الذي ينسف قلاع الباطل، ويحطم أسوار الزور، ويجتث شجرة العناد والتمرد.

وطالعت عالَم البيان في حديثه ﷺ، وتأملت أحاديثه العِذاب الرطاب، وكلامه الجزل الفخم، وذهبت مع الشعر فحفظت منه الكثير ورويت الكثير، ولكن الذي أحفظه هو الذي يعجبني ويطربني.

وسافرت مع المحدثين، والنَقَلة، والمؤرخين، والمفسرين، وأهل اللغة والأدباء، أقف مع الرائع الجميل من كلامهم، وأعيد القطعة الماتعة من كلام الذهبي، والوقفة الصادقة لابن تيمية، والمقولة المؤثرة لابن القيم، والمداخلة الخلابة

للجاحظ، والعرض الشائق لابن خلدون ونحوهم، وأكثر ما يشدني في ذلك، البيان وحسن السبك، وجمال اللفظ، وقوة المعنى، وسطوع البرهان.

جلست مع صديق لي فقرأت عليه هذه القطعة للجاحظ إذ يقول: جعلت فداك، وإنما أخرجك من شيء إلى شيء وأورد عليك الباب بعد الباب، لأن من شأن الناس ملالة الكثير واستثقال الطويل؛ وإن كثرت محاسنه، وجمت فوائده، وإنما أردت أن يكون استطرافك للآتي قبل أن ينقضي استطرافك للماضي، ولأنك متى كنت للشيء متوقعاً، وله منتظراً، كان أحظى لما يرد عليك، وأشهى لما يهدى إليك، وكل منتظر معظَّم، وكل مأمول مكرّم، كل ذلك رغبة في الفائدة، وصبابة بالعلم، وكلفاً بالاقتباس، وشحاً على نصيبي منك، وضناً بما أؤمله عندك، ومداراة لطباعك، واستزادة من نشاطك، ولأنك على كل حال بشر، ولأنك متناهي القوة مدبر.

كررت هذه القطعة الفائقة، فكأنني أجد طعمها في فمي قطعة من الشهد، وزلالاً بارداً من معين صاف، وبقيت أقلبها في عيني تقليب الدرة في اليد، والفكرة في القلب، والخاطر في الضمير، وأنت لو تأملت هذه القطعة النثرية الفائقة للجاحظ لوجدتها في أوج البيان، وقمة الفصاحة، بعيدة عن التزويق والتكلف، سليمة من التبذل والرعونة، ساحرة فاتنة.

وإنما ذكرت هذا مثلاً، وإلا فكم من مقالة وقطعة وقصيدة توقف اللبيب، وتدهش الفطن من حسنها وروعتها.

أسمع الخطيب والواعظ والمعلم والمفتي والشاعر والمحاضر فلا يملك إعجابيَ إلاَّ المتفردُ في بيانه، المتوحدُ في اختيار مفرداته، واصطفاء كلماته، وانتقاء جمله، أمَّا الهذر والحشو والإكثار، فكلٌّ يستطيعه وهو المبذول المملول المرذول المدخول!.

حدثني أحد الأدباء: أن (هتلر) أراد أن يلقي خطاباً للعالم يوم زحفت جيوشه إلى موسكو، يملأ به المكان والزمان، فأمر مستشاريه باختيار أقوى وأجمل وأفخم عبارة يبدأ بها خطابه الهائل للعالم، سواء كانت من الكتب السماوية، أو من كلام الفلاسفة، أو من قصيد الشعراء، فدلَّهم أديب عراقي مقيم في ألمانيا على قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] فأعجب (هتلر) بهذه الآية وبدأ بها كلمته، وتوَّج بها خطابه.

قف مع هذه الآية ورتِّلها وتأمَّلها لتجد فخامةً في إشراق، وقوةً في إقناع، وأصالةً في وضوح.

وقرأت مقالة لأديب يهاجم أديباً آخر سرق له مقالات ونسبها إليه، فجعل عنوان هذه المقالة قوله تعالى: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾[يوسف:٧٠]، فبقيت مع العنوان متأملاً مكرراً معجباً، وأهملت المقالة!؛ ولهذا فإنك تعذر كل من أسره القرآن واستمال قلبه وسيطر على روحه، حتى إن أحد العرب صلَّى خلف الرسول ﷺ فسمعه يقرأ: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣]، فكاد قلبه أن يطير، وسمع آخرُ قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، فذُهل وتحير من بلاغتها وجمالها، وهذا الذي حمل الوليد بن المغيرة ليصيح

صيحة المعترف ويقول: (إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه).

إن صرعى الشبهات لا يعجبهم القرآن، وإن عبيد الشهوات لا يهزهم هذا الكتاب العظيم؛ إن القرآن يعجب سليم الفطرة، بريء الضمير، حيَّ القلب، مشبوبَ العاطفة، متوقدَ الذهن، صافي القريحة، فهذه أرض طيبة خصبة لغيث البيان ومطر الفصاحة العذب.

مرت بي مئات المقالات والقصائد؛ فوجدتها ثقيلة وبيلة لا تستحق الاهتمام والمطالعة، مهلهلة السبك ضعيفة البناء، ركيكة اللفظ، ماتت قبل أن تولد، ودفنت قبل أن تحيا جزاءً وفاقاً، وبقيت الكلمات الآسرة الساحرة الساطعة خالدة خلود الحق، لامعة لموع الفجر، جميلة جمال الإبداع.

طالعْ كتاب (صيد الخاطر) لابن الجوزي، وكرر كلماته، وأعد جمله لتدرك سر شيوع هذا الكتاب وذيوعه وخلوده؛ إنها الفكرة الرائدة في ثوب جميل، والتوجيه الصادق في قالب بديع، والمعنى العميق في لفظ بهيج مشرق، يقول ابن الجوزي في كتابه طيب الذكر: (إلا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات يحفظ الله بهم الأرض، بواطنهم كظواهرهم بل أجلى، وسرائرهم كعلانيتهم بل أحلى، وهممهم عند الثريا بل أعلى، إن عرفوا تنكروا، وإن رئيت لهم كرامة أنكروا فالناس في غفلاتهم، وهم في قطع فلاتهم، تحبهم بقاع الأرض، وتفرح بهم أفلاك السماء، نسأل الله عز وجل التوفيق لاتباعهم، وأن يجعلنا من أتباعهم).. انتهى كلامه،

ولكن لم ينته أثره ولا نوره ولا أسره ولا جماله، إن البحث عن البيان في الكلام متعة؛ لا يعادلها متعة ارتياد الروض الأخضر، والخميلة المائسة، ولا يعادلها مجلس أنس، أو رحلة سياحة، وقد وصف أحد البلغاء كلام أحد الأدباء فقال: إذا تحدث فكأن السحر دَبَّ في جسمك، وهذا معنى قوله ﷺ: «**إن من البيان لسحراً**»، فهو يفعل السحر في خلبه للب السامع، يقول ابن الرومي:

وكلامها السحر الحلال لوانه ... لم يجن قتل المسلم المتحرزِ

إن طال لم يملل وإن هي أوجزت ... ودَّ المحدث أنها لم توجزِ

والكلمات الجميلة هي التي نُقشت في أذهاننا، وكتبت في قلوبنا، فبقيت وعاشت: أقرأ كلام علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فأكرره كأنني أشرب زلالاً بارداً حلواً على ظمأ في قيظ، حتى عقد له ابن كثير في تاريخه فصلاً عنوانه: باب في كلماته الحاصلة التي هي إلى القلوب واصلة، ولما افتتح البخاري كتاب الرقاق من صحيحه ذكر قول علي: «إن الدنيا ارتحلت مدبرة، وإن الآخرة ارتحلت مقبلة، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل»، فانظر إلى هذا الإيجاز مع قوة المعنى وحسن الفواصل، وبراعة الإيراد، وجمال العرض.

ولما بدأت في مطالعة (الكشاف) للزمخشري بدأ ليصلي على النبي ﷺ فقال: والصلاة والسلام على حامل لواء العز في بني لؤي، وصاحب الطود المنيف في بني عبد مناف بن قصي، صاحب الغرة والتحجيل، المذكور في التوراة والإنجيل... إلى آخر هذا الكلام الجزل الفخم، ولحسنه حفظته.

إن أول طبعة لمصنف ابن أبي شيبة طبعت في الهند، قدم لها أحد علماء الهند مقدمة باردة سامجة متفككة متهالكة، حتى صارت مصدر نادرة في المزاح، وما هذا إلا لأن الرجل يكتب بغير لسانه، وما غاص في مفردات اللغة العربية، وما تمتع بجمالها فهو غريب، وإنك لتسمع العالم يفتي، والمعلم يدرس، والخطيب يتحدث، والشاعر يلقي، فتعرف قوة هؤلاء من ضعفهم وبيانهم من عيِّهم من أول وهلة؛ لأن الكلام الباهر الجميل الساطع لا يخفى حسنه، ولا يجهل قدره.

إن أساطين البيان حفروا كلماتهم في ديوان التاريخ، وذاكرة الأجيال لأن الإبداع له خلود، والتفوق له ذيوع، والتفرد له امتياز.

قال أحد الخلفاء لبليغ: ما البلاغة؟ قال هي: أن لا تبطئ ولا تخطئ. قال مثل ماذا؟ قال مثل هذا!، وانظر كيف أوجز وأعجز. وقالوا لشاعر: نراك تسرع في الكلام قال: لأن القوافي تزدحم في فيَّ - أي فمي -، فما أسرع جوابه وأحسن صوابه.

ومدح رجل علياً - رضي الله عنه - وكان يبغض علياً - فقال له عليٌّ: أنا فوق ما في نفسك ودون ما تقول، وقال له رجل: لماذا اتفقت الأمة على الشيخين، واختلفت عليك؟ قال لأن رعيتهم أنا وأمثالي، ورعيتي أنت وأمثالك! فقل لي بربك أي جواب هذا الذي كأنه أعده من شهر.

لقد حرمنا متعة البيان بسبب هذا الهذيان، كلام طويل ثقيل وبيل، وتكرار وتبذُّل، حتى إنك لتسمع الخطيب يتكلم ساعة كاملة ولو جمع ما قال في خمس دقائق لأحسن إلى نفسه وإلى السامعين.

إن السيلان الخطابي، والثرثرة في الحديث شيء، والبيان والبلاغة شيء آخر، إن البيان هو أن تصيب المحز وتشفي النفس وتبلّغ حجتك.

ولِوَلعِ النفس بالبيان، وتعلق القلب بالفصاحة؛ سافرت مع أبي الطيب المتنبئ لجمال شعره وروعة بيانه، وجزالة لفظه، وبراعة عرضه، وأما مبادئه ومذهبه في الحياة فلنا معه حديث آخر في هذا الكتاب.

مملكة البيان ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ﴾

﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ فصار هذا المخلوق بالمنطق آية باهرة على عظمة خالقه، وصار بالبيان مخلوقاً كريماً يقول الكلمة فتخلب الألباب، وينطق اللفظة فتدهش العقول، يصوغ من الحروف سحراً، ويجري من الجمل نهراً، يهدِّئ الجموع الثائرة بخطاب، ويحرك القلوب الخامدة بموعظة، وإن العبارة البليغة الباهرة لهي أجمل من اللوحة الهائمة في الحسن، وإن الجملة الموحية الآسرة الأخاذة لهي أبرع من ريشة الرسام العبقريِّ، وإن أهل العقول الراشدة السوية يجدون في مطالعة البيان من المتعة واللذة ما لا يجدونه في مشاهدة الخمائل المائسة، والجداول الرقراقة.

واعلم أن قوت القلوب موائد من المعاني الجميلة الخلابة، وإن زاد النفوس لهو مدد من البينات، وإن معين الأفئدة الرقراق لهو عين من الإبداع في القول يشرب بها النبلاء يفجرونها تفجيراً.

إن من أعظم أوصاف رسالته ﷺ أنها ذات بيان باهر، وبلاغة فائقة، وتأثير عجيب، ودونك هذا القرآن الكتاب الخالد، والمعجزة الظاهرة، التي شدهت العقول، وهزت الأنفس، حتى أنصتت لها البصائر بإمعان، وأخبتت لها الأرواح في خشوع، فاهتزت لهذا البيان، وربت بهذه البلاغة، وأنبتت من كل زوج بهيج من الإيمان والعطاء والتضحية.

كان رسولنا ﷺ أفصح الناس كل الناس، وأبلغ البشر جميع البشر، فجاء خطابه غيثاً هنيئاً مريئاً، يهجم على القلوب القاحلة فإذا هي حدائق ذات بهجة ببركة هذا الكلام، فصارت جمله ﷺ حديث السمار، وزاد الركب، أشهر من الأمثال، وآنس من العافية، وأجمل من طلعة الفجر الباهية، ولأن المتفوقين من الناس والبارعين من العقلاء يطربون لأسرار الإعجاز في البيان، ولطائف الإلهام في القول، ونكات الفصاحة في الحديث، ولقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يهز الأنفس بالقول المؤثر فقال: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣]، فبالقول البليغ تقوم الحجة، وتتضح المحجة، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق.

وقد أحببنا أن نسافر مع الكلمة الشاردة الفريدة، والجملة الناصعة المشرقة والقول الفصيح الجذاب فاخترنا شاعراً لامعاً، وأديباً باقعة، وعبقرياً فذاً، تجذرت كلماته في قلوب رواد الإبداع، وغاصت إشراقاته في نفوس محبيه، هذا من حيث جمال شعره، وروعة قصائده، وسحر بيانه، وأما من حيث مذهبه ومنهاجه في حياته فلنا معه وقفات ومؤاخذات، لا نظلمه ولا نهضمه، ولا نفرط عليه ولا نطغى، بيننا وبينه ميزان الإنصاف، لا يضيع حبة خردل من الحقيقة، وأمامنا وأمامه كتاب المروءة والعدل، لا يغادر صغيرة من الإبداع ولا كبيرة من جواهر البيان إلا أحصاها.

فمرحباً بملك الشعراء في مملكة البيان، ونحييه بقوله هو:

يا فخـر فإن الناس فيك ثلاثـة   مسـتعظم أو حاسـدٌ أو جاهـلُ

وإذا أتتـك مذمتـي مـن ناقصٍ   فهـي الشـهادةُ لـي بأني كاملُ

وسوف نقرأ المتنبئ قراءة المتلمس للبيان، المشغوف بالحسن، المتلهف على الإبداع، وهو الذي يقول لنا:

لا تعذلِ المشتاق في أشـواقه   حتى يكون حشاك في أحشائه

وقد أبدع في هذا البيت، وإليك بسطه بالنثر، فهو يقول لك: أرجوك لا تثرب على المشتاق المحب في تلهفه وتوجعه واحتراقه، ولا تلمه على زفراته والتهاب حشاياه، واضطراب جوانحه، فإنه معذور بما يحمل من حب، وما يجد من صبابة، فما دام أنك لم تذق ما ذاق من اللوعة والأسى، فلماذا ـ رعاك الله ـ تلومه وتؤنبه؛ لأنّ حالك غير حاله.

ونحن في قراءة شعر المتنبئ نجد من هذه اللوعة والاشتياق والتأثر ما نرجو معه أن يعذرنا لائمونا، ولا يثرب علينا أحد من الناس هذه النزعة الأدبية، والغرام البياني مع كل لفظ جميل ساحر.

المتنبئ

تجاوزنا السيرة الذاتية، وتخطينا التراجم التقليدية، ووصلنا إلى نتاج هذا الشاعر مباشرة؛ فالمتنبئ عندي ملك الشعراء؛ لأن للشعر وزيراً وأميراً وقاضياً وفقيهاً، ولكن مملكة الشعر لملكها أحمد بن الحسين المتنبئ لمجموع محاسنه، وكلية إبداعه، وقد يفوقه في قصيدة أو بيت واحد غيره من الشعراء، لكن مجموع شعره لا يفوقه فيه شاعر ولهذا يقول:

أنا السابق الهادي إلى ما أقوله إذا القول قبل القائلين مقولُ

وهذا الشاعر انصهر مع الكلمة، وذاق البيان، وأشرب في قلبه الفصاحة فذابت حشاياه، وغلت مراجل فكره بجواهر من القول فاقت الوصف، والذي يعجبك في المتنبئ هذا الاحتراق والإشراق، فهو محترق بهمومه وهمته وطموحاته، مشرق بعبقريته وإبداعه ونبوغه، وهو كما قال في ممدوحه:

وإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزالِ

ولك أن تقف أمام هذا البيت الذي يغنيك عن إسهاب من القول، وحواش من الحديث، فهو كما يقول لممدوحه: إنك وإن تفوقت على أقرانك، وتفردت بصفاتك عن بني جنسك، وتميزت هذا التميز المنقطع النظير، فلا غرابة في ذلك، فإن المسك على ندرته وشرفه وطيب رائحته وارتفاع ثمنه؛ من جنس دم الغزال.

البطاقة الشخصية:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

هذه ترجمة موجزة للمتنبئ، فليس يهمنا معرفة أصله وفصله ونسبه وحسبه، بل نريد إبداعه ولموعه كما قال الشاعر:

أنا لست مهتماً بأصل قبيلتي ورائي قريش أم ورائي تغلبُ
فليست بلادي بيرقاً أو خريطة ولكن بلادي حيث أستطيع أكتبُ

فهو يقدم لنا نفسه بهذا البيت على أنه موهوب، فرض نفسه على الناس بشعره وأدبه، حتى إن الأعمى الذي لا يبصر شيئاً نظر إلى أدبه، لقوة تأثيره، وسطوع تعبيره، وبلاغة تصويره، والأصم الذي لا يسمع شيئاً، أنصت لكلماته النافذة الآسرة الباهرة.

أما شعره، فيكفيه أن الدهر أحد رواة شعره، والأيام والليالي أصبحت تردد هذا الإبداع، وتغني هذا السحر الحلال:

وما الدهر إلا من رواة قصائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً
فسار به من لا يسير مشمراً وغنى به من لا يغني مغرّداً

مطالع قصائده

المتنبئ يخطف الأضواء ببريق مطالعه القوية النافذة، ومطلع القصيدة كالوجه من الجسم، والعنوان من الكتاب؛ لأنها أول ما يطرق السمع، ويصل إلى القلب، فهو يختار المطلع بعناية، ويجوّد أول القصيدة، حتى صارت مطالعه كالأمثال إشراقاً، واسمع بعض أجزاء لهذه المطالع، ثم بسط القول في ذلك؛ يقول: «واحر قلباه ممن قلبه شبم»، ويقول: «لكل امرئ من دهره ما تعودا» ويقول: «حشاشة نفس ودعت يوم ودعوا» ويقول: «باد هواك صبرت أم لم تصبرا» ويقول: «لا خيل عندك تهديها ولا مال» ويقول: «بم التعلل لا أهل ولا وطن» ويقول: «نعد المشرفية والعوالي» ويقول: «فراق ومن فارقت غير مذمم» ويقول: «لا تعذل المشتاق في أشواقه» ويقول: «عدوك مذموم بكل لسان». إلى آخر تلك المطالع التي تفرض حسنها على بصائر عشاق البيان.

فهو لا يبدأ في قصيدته ضعيفاً، أو متخاذلاً، بل يحتفل بأول كلمة يقولها في قصيدته، ويمنحها من رشاقة عباراته، وحلاوة منطقه، وطلاوة سحره ما يجعل هذا المطلع محفوظاً سائراً شارداً.

أراد أن يعاتب سيف الدولة، وأن يتفجع أمامه، وأن يتوجع عنده من حساده، وأن يشكو إليه من خصومه؛ فماذا عسى أن يبدأ به لهذه القصيدة، هل يبدؤها بحكمة؟ لا، هل يبدؤها بغزل؟ لا، بل الأحسن أن يقول في أولها: «واحرَّ قلباه»

هكذا صارخة قوية متمرّدة، تتقطع معها كبده لوعة وأنيناً، ويتمزق مع آهاتها وزفراتها ما بقي معه من قلب مكلوم، وروح منهكة مضطربة.

ودخل على أمير ليهنيه ويبارك له، فليس للغزل والغرام هناك مقام، وليس للحكمة مناسبة، وإنما بدأ معتذراً ومتلطفاً ليقول:

لا خيل عندك تهديها ولا مالُ فليسعد النطق إن لم تسعد الحالُ

وهو مطلع فائق بكل معاني الكلمة، آسر بكل مدلول الأسر، غاية في الحسن، وآية في المتعة، حتى صار أنشودة عذبة على شفاه الرواة، ومثلاً شروداً على ألسنة الحداة. وكأني به يمد صوته بحرف «لا» ثم يرسل البيت ليكون أجمل من الهدية وأثمن من العطية.

يريد أن يصف همة سيف الدولة، وعلو قدره، وارتفاع درجته بما حققه من نصر، وحازه من مجد فيبدأ بقوله:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

وأنت إذا سمعت هذا البيت وقر في خلدك، واستوى في فؤادك، فسوف تعلم أن الرجل سوف يحلق بإبداعه في عالم الهمة، وسماء التضحية، ودنيا العظمة، فهو يقدم لك عنوان الكتاب، ومفتاح الباب، ولجام الفرس؛ لتتهيأ لما سوف يبثه من مديح راق، وثناء عبق وإشادة سامية.

يريد أن يخبرك بحاله بعد الفراق والبعد ونكسة البال، وضيق الصدر وتكالب الأعداء، وقلة النصر؛ فيقذف بهذه العبارات أولاً:

بم التعلل لا أهل ولا وطنُ ‏ ‏ ‏ ولا نديم ولا خل ولا سكنُ

فتفهم أن الرجل محترق بمعاناته، ملتهب بآلامه، تكاد نياط قلبه أن تتقطع، وتوشك أعصابه أن تتمزق، فهو يتساءل متعجباً من حاله، لماذا يتعلل ويتصبر وليس عنده أهل يأوي إليهم، فيبثهم وجده، ولهيب صدره، وليس لديه وطن لأنه غريب مرتحل، وليس عنده صديق؛ فقد خانه الكل، وتنكر له الجميع، وما عنده محبوب يبثه نجواه، وينفث فيه شكواه، وأيضاً ليس عنده سكن يضمه ويحتضنه، فهو في حالة أبلغ وصف لها هذا البيت، وياله من مطلع ذائع فائق.

ويذهب طريداً شريداً إلى كافور، وقد تقطعت به الحبال، وضاقت به الآمال، وأظلمت أمامه السبل، فلا يبدأ بالمدح؛ لأنه في شغل شاغل عنه، ولا يستفتح بالغزل؛ لأنه يتلظى بالمرارة، ولا يقدم الأمثال؛ لأنه في عالم المعاناة والغربة، وإنما يقذف بهذه الحكمة التي تدل على ما وراءها من كرب شديد، وحزن بالغ، وبال كسيف أسيف:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً ‏ ‏ ‏ وحسب المنايا أن يكنَّ أمانيا

تمنيتها لما تمنيت أن ترى ‏ ‏ ‏ صديقاً فَأَعْيَا أو عدواً مداجياً

يا الله! إلى هذه الدرجة من البلوى يصل هذا العبقري الفذ، إلى درجة يتمنى فيها المنايا الحمر الكوالح، وإلى حد يرى أن دواءه يكمن في الموت، فإذا وصل الحال إلى هذا المستوى، فحسبك بها بلية كبرى ومصيبة عظمى، حتى إن شاعرنا فقد كل صديق، ولم يجد حتى عدواً مجاملاً، بل كلهم أصبحوا أعداءه؛ لأنه ناجح فحسب، وهم كلهم أعداء النجاح.

أما كافور فيريد مدحه وتبجيله وتفخيم أمره؛ فينفجر بهذا المطلع الذي كأنه إطلالة بدر من سحب، أو إشراقة نجم من حجب، أو طلعة فجر في الآفاق، يقول:

عدوك مذموم بكل لسان ولو كان من أعدائك القمرانِ

ولله سر في علاك وإنما كلام العِدَى ضرب من الهذيانِ

هكذا بدأ قصيدته قوياً لامعاً فياضاً، وانظر إلى قوة الأسر، وبراعة الاستهلال، وإشراق الكلمات، وجزالة الجمل، فكأنه يفصل ثوباً زاهياً على ممدوحه، أو يضع على هامته تاجاً مرصعاً، فهو يحطم شُبَه أعداء ممدوحه، وينسف أباطيلهم، ويدفع أقوالهم بهذا القول البليغ السار، حتى لما سمع أحد العلماء هذا المطلع المرّار قال: هذا والله هو الشعر.

ولكنه يُحَارَب حتى في مصر، وتضيق به الأرض بما رحبت كما وصف حاله:

غريب من الخلان في كل بلدة إذا عظم المطلوب قل المساعد

ويصل إليه عيد الفطر وهو في مصر، فلا يفرح بالعيد ولا يبهج به، ولا يحتفي به؛ لأنه غريب شريد طريد مكبوت، بل ينفجر ناقماً غاضباً باسراً عابساً ليقول:

عيد بأية حالٍ عدت يا عيدُ   بما مضى أم لأمر فيك تجديدُ

أما الأحبة فالبيداء دونهمُ   فليت دونك بيد دونها بيدُ

بهذا المطلع البارع المعبر المصور يبدأ بكاءه، ويستهل عويله، فهو أبداً غاضب كالليث، جاهم كالليل، ثائر كالبركان، عاصف كالريح، يعلن للمشاهدين كل ساعة تمرده وعنفوانه ورفضه، وهو دائماً معارض، تغلي نفسه بالغصص من زمانه وبني جنسه. إنه عند نفسه مظلوم معتدى عليه مقصود بالإيذاء، تحبك له المؤامرات، وتنسج له العداوات، وتلفه المصائب من كل جانب، ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت.

إنها عقوبة من الله لأعدائه كما يقول:

إنـي وإن لمت حاسدي فما   أنكر أني عقوبة لهمُ

الشاعر الثائر

هذا الشاعر محترق متدفق، له معاناة تمور في صدره، وعنده صراع داخلي يتفاقم في جوانحه، فهو كتلة من الغضب على المخالفين، وهوشهاب ثاقب على أعدائه؛ لأنهم رفضوا الاعتراف به، وصادروا جهوده، وتنكروا لإبداعه، فهم والزمان والمكان والأصدقاء والسلطان بل الجميع ضده:

يا من ذكرت على بعد بمجلسه ... كل بما زعم الناعون مرتهنُ

يا كم قتلت وياكم مت عندكمُ ... ثم انتفضت فزال القبر والكفنُ

إنه أقوى من أعاصير الخصوم، وأعتى من أراجيف الأعداء، فهم يميتونه وهو لم يمت، ويشيعون نهايته وهو لم ينته، فهو ساكن في ضمائر الجمهور، خالد في سفر الإبداع، موجود في ديوان العبقرية، إن حساده يريدون شطب اسمه من سجل العظماء؛ فيغضب ويثور ويحتج ويرفض:

أبدو فيسجد من بالسوء يذكرني ... فلا أعاتبه صفحاً وإهوانا

وهكذا كنت في أهلي وفي وطني ... إن النفيس غريب حيثما كانا

حسبك الله من شاعر تتحدى الأزمات، وتدوس المنايا، وتجتاح معاقل الخصوم، وتواجه الموت الكالح بهمة كالدهر وعزيمة كالفجر.

والرجل مجروح في الصميم، مكلوم في سويداء القلب من أناس ما قدروه حق قدره، وما احترموا منصبه السامي في الأدب:

سوى وجع الحساد داو فإنه ... إذا حل في قلب فليس يحول

ولا تطمعن من حاسد في مودة ... وإن كنت تبديها له وتنيلُ

هكذا جرب وذاق وجع الحساد، واكتوى بنارهم، وتلظى برمضائهم. إن المتنبئ شاعر مجدد في عالم الشعر، ليس تقليداً على مذهب شعراء المناسبات، ورواد مقاهي النفاق السياسي، وضيوف حفلات مراسيم تكريم الوفود، فهو لا ينتظر من الخليفة أن يقول: يا غلام أعطه ألف دينار، وأركبه بغلاً، واهده جارية؛ كلا، بل هو كما قال عبدالله البردوني:

مِن تلظّي لموعه كاد يعمى كاد مِن شهرة اسمه لا يُسمَّى

من تُداجي يا بن الحسين أُداجي أوجهاً تستحق ركلاً ولطما

إن هذا الشاعر يرفض أن يسام الخسف:

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

وهو يرى أن الموت على عز أجل وأشرف من حياة على مهانة وذلة وخسة:

وإن لم تمت تحت السيوف مكرماً تمت وتلاقي الذل غير مكرمِ

إنه في هذا البحث يريحك من مطالعة كتاب في فن الاستجداء والاستخذاء، لتكون من حفظة متون الذل، ومن طلاب مدرسة الخنوع والجبن، وهويرى أن من مات تحت غبار المعركة لنصرة مبادئه، لا يذوق من طعم الموت إلا كما يذوقه صريع الشهوات وعبد النزوات:

فطعم الموت في أمر حقير كطعم الموت في أمر عظيم

وهو معذب بنفسه الطموحة التواقة؛ لأن بداخلها همةً عارمة لا يردها شيء:

لحا الله ذي الدنيا مناخاً لراكب   فكل بعيد الهم فيها معذب

إنه الصعود أبداً، والتفوق دائماً، وهو مذهب الناجحين في الحياة كما وصفه هو بقوله:

لولا المشقةُ ساد الناس كلهم   الجود يفقر والإقدام قتّالُ

وانظر ما أحسن لفظ المشقة؛ لأنه عام فائق يندرج تحته كل معاناة وجهد وتعب، ولفظ ساد أجمل من كل لفظ في موضعه، فهو فصيح باهر وضيء، وهذه ألفاظ زادها القرآن جمالاً وروعةً وإشراقاً، وانظر إلى الإيجاز والاختصار في قوله: **الجود يفقر والإقدام قتال**، مع حسن التقسيم، وجمال الفواصل، وبراعة الجرس، وحذف الحواشي والمعاضلة، ويقول عن اندفاعه الجارف، وبعد نظره، وتدفقه العاطفي المزلزل:

ولكنّ قلباً بين جَنْبَيّ ما له   مدى ينتهي بي في مراد أحده

إنه يريد الاعتراف من الناس بنبوغه ومكانته وسموه، حتى يقول في مجلس ممدوحه:

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا   بأنني خير من تسعى به قدمُ

ومهما خالفناه في هذا التبجح المكشوف؛ فإننا نوافقه على أنه نابغة في عالم البيان، وأعجوبة في دنيا الشعر، ويكفيه هذا الذيوع الأدبي والشيوع الشاعري وهو مايريده.

الشاعر الذائع

لا أعلم شاعراً فرض على الناس إنشاد شعره وترديد أبياته كالمتنبئ؛ لأنه عاش ما يقول، وعانى ما يتلفظ به، وانصهر بالحوادث فصورها شعراً، ولذع بالنكبات فأرسلها أمثالاً، ولابس التجارب فأبدعها حكماً، فصار شاعراً محفوظاً في الذاكرة، حاضراً في الأجيال، خالداً في ديوان الإبداع، وهاك بعض أبياته الشاردة الذائعة الشائعة يقول:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً لـه ما من صداقته بدُ

إن من يقول هذا الكلام لابد أن يكون مبدعاً موهوباً، أديباً مجرباً بليغاً عبقرياً، فالإبداع يخترع لك المعنى الجميل، والموهوب تسعفه ذاكرته بجواهر المعاني، والأديب يصوغها في قوالب أزهى وأبهى من الماس، والعبقري يتفرد عن التقليديين والعاديين، والمجرب له مدد من حياته الغزيرة بالأحداث الغنية بالحوادث.

لو أن متحدثاً أراد أن يقول معنى البيت السابق نثراً لقال: إن الدنيا مشؤومة على الأخيار، تضطرهم أن يحتاج الأخيار فيها إلى الأشرار، فيحملونهم وينافقونهم لجلب الخير ودفع الشر؛ لأنهم مضطرون لذلك؛ فيصبح العدو اللدود عند الضرورة صديقاً يذل له، ويصانع ويدارى ويداهن للمصلحة المفروضة، أو الحاجة الملحة، أو الضرورة القائمة، ويكفي هذا ذلة للأحرار، وعلماً بحقارة ونذالة الدنيا، لكن المتنبئ يختزل هذا السيلان الإنشائي، والثرثرة اللفظية في بيت محبوك مسبوك أجمل من نجوم الليل، وأثمن من حمر النعم فيقول:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوًا لـه ما من صداقته بدُ

وتعال معي ـ رعاك الله ـ وضع أصبعك على كل كلمة في البيت لترى روعة الاختيار، وجمال الانتقاء، وانظر إلى كلمة نكد وبالها من لفظة معبرة موحية، تشعرك بالاشمئزاز من هذه الدنيا، فهي دار النكد والكبد، وهي أبلغ في موقعها من لفظة غيرها مكانها، وكلمة الحر موحية فاتنة؛لأن فيها معنى الأنفة والكبرياء والشموخ، وهي التي تليق بالمقابلة في البيت، ثم انظر قوله عدوًا له، وليس مبغضاً وكارهاً فحسب، بل عدواً كاشحاً، ثم يختار كلمة الصداقة، ولو أنه النفاق الظاهري، لكن ليقابل كلمة العدو، ثم يأتي بكلمة بد وقد احتاجت لها القافية حاجة الأرض للمطر، فجاءت في محلها لا وكس ولا شطط؛ ليتم هذا البيت الفريد. ولك أن تقول نثراً: إن الحقراء إذا نالوا العظماء فهو دليل على عظمة هذا العظيم وسمو قدره وجلالة مكانته وخطورة منزلته، ولكن المتنبئ يكسو هذه المعاني حلية باهية، ويوشيها بحلة زاهية؛ لتبقى وتنقل وتعيش يقول:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

فانظر إلى كلمتي ناقص وكامل وحسن المقابلة بينهما، وكلمة مذمتي وكلمة الشهادة، ثم ارجع البصر كرتين في سلامة هذا الذوق، وجودة هذا الخاطر، وخصوبة هذه الذاكرة.

إن الأمة أصيبت بإعياء في البصيرة، وكساح في الذوق، فما أصبح يهزها هذا الخطاب؛ لأن التبلد الذهني مع خشونة الطبع وانطماس العبقرية زادها عمًى عن مشاهدة مرابع الجمال والبيان، ومطالعة البهاء والإبداع في هذا السحر من الكلام، والعذب من القول:﴿ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾[النساء:٧٨]. ولك أن تتهم الناس بأن نواياهم وحدها لا تكفي

بلوغ المقصود، وأن طموحاتهم قد تصطدم بموانع لا تسمح ببلوغ مقاصدهم، فكم من أمنية عذبة لم تتحقق، وكم من مراد في الأذهان لم يحصل في الأعيان، لكن هذا الكلام قد يطير هباءً منثورًا ما لم يقيد بقافية جميلة، وكلمة شاردة، وهذا ما فعله المتنبئ بقوله:

ما كل ما يتمنى المـــرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

فانظر إلى قوة الفكرة، وحسن الشاهد، وحلاوة السبك في إيجاز من القول، ولطف من العبارة، ورشاقة في المعنى.

إن الشيوع والذيوع للعالم والشاعر والواعظ والزعيم هبة ربانية، ولكن لها أسبابها ومواهبها، وكان المتنبئ ذائعاً شائعاً حتى ذكر شارحو ديوانه أن له خمسمائة بيت تدور على ألسنة الناس، وأصبحت بعض أجزاء أبياته كالسكر في الفم، والطل في الزهر، كقوله:**«فإن في الخمر معنى ليس في العنب»**، وقوله:**«أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم»**، وقوله:**«ما لجرح بميت إيلام»**، **«إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه»**، **«فراق ومن فارقت غير مذمم»** وقوله: **«كأني عجيب في عيون العجائب»**، وقوله: **«على قدر أهل العزم تأتي العزائم»**، وقوله: **«مصائب قوم عند قوم فوائد»**، وقوله: **«ولابد دون الشهد من إبر النحل»**، وقوله:**«ولا يرد عليك الفائت الحزن»** إلى آخر ذلك السمو البياني والرقي اللفظي والجبروت العاطفي، فهذا الشاعر ليس خاملاً يبحث عن المعاني المبتذلة عند الحاكة والحلاقين والباعة، وليس بارداً يريد أن يقول كلاماً مقفّى وحديثاً موزوناً، ولكنه مبدع حر ليس عاديّاً، عنده عاطفة فوّارة، ونفس جياشة، وهمة مجنحة، وذاكرة خلاقة، مع

حياة مليئة بالعبر والتجارب؛ ولهذا كله صار أعجوبة في شعره، شاغل للمجالس؛ حاضر للنوادي وإلا فما معنى أن نرى لعشرات الشعراء أسفاراً من الأشعار في مجلدات ضخمة وإذا بها خامدة جامدة هامدة ميتة ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣]، ولم يصل لنا من شعر مئات الشعراء إلا عشرات القصائد الشاردة التي هي عيون في الأدب مثل:

(قفا نبك، وهذا الذي تعرف البطحاء وطأته، وعيون المها، والسيف أصدق أنباءً، وأمن تذكر جيران بذي سلم، وعلو في الحياة وفي الممات ومجالس وحي مقفر العرصات، ..) مع قليل من القصائد في قوتها ثم تندرس بقية قصائدهم، ولا يدري بها إلا باحث، ولا يعثر عليها إلا منقب متخصص، إلا هذا المتنبئ الأعجوبة فمجمل شعره ينشد بين الناس، وحكمته تدور بين العلماء، وقوافيه تدور دوران عيون المحبين في مجالس الأنس كما قال هو: (إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً).

لقد أعفانا المتنبئ من شعر الأعراب الذي ضيع أعمارنا في وصف ناقة عجفاء، وذكر منزل دارس مجدب، وتذكر فتاة في واد الغضا، ومدح شيخ قبيلة لا يحفظ الفاتحة، وسب قبيلة لأنها منعته من وجبة العشاء، فجاء المتنبئ فحذف هذه الحواشي، ونسف هذه الحواجز الترابية ليرقى بمقاصد الشعر، مع ما عنده من غلو وإعجاب وتيه، وميزة المتنبئ أنه كبير المعاني جليل الأغراض ضخم المقاصد؛ اسمع بعض ذلك:

يقول:

أحقُّهم بالسيف مَنْ ضرب الطُّلى   وبالأمن من هانت عليه الشدائد

ويقول:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

ويقول:

من اقتضى بسوى الهندي حاجته أجاب كل سؤال عن هل بلم

ويقول:

لا يدرك المجد إلا سيد فطن لما يشق على السادات فَعَّالُ

ويقول:

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

ويقول:

ذل من يغبط الذليل بعيش رب عيش ألذ منه الحمام

ويقول:

يرى الجبناء أن العجز عقل وتلك خديعة الطبع اللئيم

ويقول:

جود الرجال من الأيدي وجودهمُ من اللسان فلا كانوا ولا الجود

وله في هذا المذهب قطوف دانية من القول الثمين والمعنى الرصين.

لقد شبعت قصائد كثير من الشعراء موتاً قبل أن تولد، فها هي الدواوين في الأدراج جعلها الناس قراطيس يبدونها ويخفون كثيرًا منها، إذا قرأت أكثرها قلت:

أحسن عزاء من كتبها في مداده، وعوض الله من طبعها في ماله، حتى قال بعض الأدباء: طالعت ديوان فلان بن فلان ثم أخذته فأوقدت به ناراً، وصنعت عليها رغيفاً من البر، وها هي الصحف والمجلات والدوريّات تمطرنا بسيل جارف من القصائد لا تستحق دقيقة واحدة لمطالعتها، ولا تسمح لنا نفوسنا بقراءتها؛ لأنها جُمل متراكبة تراكب النمل، مزدحمة ازدحام شعر النيص، ثقيلة ثقل دم الضرس، لا تحرك في السامع شعرة ولا تهز فيه ذرة، ومع ذلك يوصف هؤلاء الشعراء بالنجوم واللامعين وأساطين البيان، رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه، وغفر الله لمن كان يستحي من الله ثم من خلقه؛ فنحن الآن وقعنا بين شعر يسمى عربياً وهو أعجم من العجمي، حروفه عربية ومعانيه سوقية، يذوب سخفاً، ويندى حقارة وخسة، وبين شعر عامي شعبي يصلح لأهل البادية الذين لم يشاهدوا سبورة ولا طبشورة؛ ولم يحملوا قلماً ولا ورقة، ويظنون أن حدود العالم ما بين خيامهم ومرعى أغنامهم، لعل مقصودنا من دراسة المتنبئ أن نقول لرواد الأدب وشداة البيان وحداة القافلة: حلقوا في سماء الإبداع واختاروا الأروع والأحسن، وارتقوا إلى مستوى فهم كتاب ربكم جل في علاه، الكتاب الذي أعجز العرب العرباء، وأسكت الأدباء، وأفحم الشعراء ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ﴾[البقرة: ٢]، ودعونا من هذا الهزال الأدبي، والكساح الخطابي، الذي ليس له عمر مديد، ولا مستقبل عامر؛ لأنه ميت منذ ولادته، محكوم عليه بالفناء من لحظة وجوده ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

المتنبئ يلهب النفوس بتوجعه وتفجعه

إن النفوس لا يحركها أي كلام، ولا يهزها؛ أي حديث لأن الله خلقها عارفة مميّزة، تفرق بين الجميل والقبيح والجيد والرديء، والشعراء درجات في اقتدارهم على مخاطبة النفوس، وأظن المتنبئ بلغ الغاية في إلهاب نفوس سامعيه، وتحطيم الحواجز بينه وبين محبيه، لقد سبقه كثير من الشعراء إلى تلك المعاني التي جاد بها، لكنه كساها رونقاً وحياة ومتعة فهذا أبو تمام يذكر المصلحة من المصائب بقوله:

والحادثات وإن أصابك بؤسها   فهو الذي أنباك كيف نعيمها

لكن المتنبئ يسوقها في هذه التحفة الرائعة:

ومن العداوة ما ينالك نفعه   ومن الصداقة ما يضر ويؤلمُ

فيطوف بعالم المعنى الأشمل الأعم في لفظ مترقرق بهيج.

ويقو شاعر إيران السعدي الشيرازي:

بكت عيني غداة البين دمعاً   وأخرى بالبكى بخلت علينا

فعاقبت التي بالدمع ضنت   بأن أغمضتها يوم التقينا

لكن المتنبئ سبقه فحفر في ذاكرة الأجيال، ونقش في ضمائر الناس قوله:

إذا اشتبكت دموع في خدود   تبين من بكى ممن تباكى

ويقول دانتي شاعر إيطاليا: إن السخفاء يجدون لذة في تتبع عثرات العظماء، ولكن المتنبئ يتفوق عليه ببيته الذائع المهيمن:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

وميزة المتنبئ كما أسلفت تفجعه وتحرقه بما يقول، وانصهار روحه بمعاناته، وذوبان حشاشته بقضاياه يقول: واحر قلباه، ثم يسكت، فكأن قلبه يريد أن يغادر محله، وكأن ضلوعك تريد أن تنقض. ويقول:

أصخرة أنا مالي لا تحركني هذي المدام ولا هذي الأغاريد

فتشعر أن الرجل حلت به أزمة طاحنة، وكربة ساحقة، وبلية ماحقة، ويصيح باكياً:

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من شأنه ما عنانا

وتولّوا بغصّةٍ كلهم منْـ ـهُ وإن سر بعضهم أحيانا

تسمع هذا فتحس بتعاطف وتضامن معه، فتشاركه هذا الأنين المكبوت، والعبرة المسفوحة. ويضج بحاله ويضيق من عيشه فينفجر شاكياً:

أما تغلَطُ الأيامُ فِيَّ بأنْ أرَى بغيضًا تُنائي أو حبيبًا تقربُ

فتعتقد أن الرجل ضاقت به الأرض بما رحبت لما اعتراه من هموم وغموم، وتشاهد لوحة من لوحاته الحزينة وإذا به يرسم فيها:

أريد من زمني ذا أن يبلغني ما ليس يبلغه من نفسه الزمن

ولكنه وللأسف لم يحظ بنيل حظوظه، وإدراك رغباته؛ لأن مقاصده تتعكس، ومرارته تتقلب خاسئة حسيرة إليه، ويرثي أحد أصحابه فيبدأ البكاء بقوله:

الحـزن يقلق والتجمـل يـردع والدمـع بينهمـا عصـي طيّع

فتجد مع ألم المصيبة روحاً وثابةً، وهمةً جامحةً، ونفساً صامدةً، ولكنها موجعة منهكة.

ويحتَجُّ على الحُمَّى ويصيحُ في وجهها:

أبنت الدهـر عنـدي كـل بنـت فكيف وصلت أنتِ من الزحامِ

فإذا الرجل مضرس بالأنياب، مجرح بالمخالب، تنهشه النوائب من كل جهة كما يقول:

رمانـي الدهـر بالأرزاء حتى فـؤادي فـي غشـاء مـن نبالِ

فصـرت إذا أصـابتني سـهام تكسرت النصال على النصالِ

فهو يَحْسُو كأس المعاناة قطرة قطرة، ويتجرع غصص الكربات غصة غصة، وسامحه الله، ليته رد الأمر إلى فاطر السماوات والأرض، وسلم له أمره وردد ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا ..﴾ [التوبة: ٥١] إن الناس ليسوا بحاجة إلى كلام بارد ثقيل، يطفئ جذوة الخاطر، ويميت إشراق النفس، لكنهم بحاجة لمن يترجم مآسيهم، ويشاركهم أحزانهم، ويعزيهم في مصابهم، ويخفف عليهم من ويلاتهم:

ولابد من شكوى إلى ذي قرابة يواسيك أو يسليك أو يتوجع

إن الشعر التقريري الإخباري أشبه بأخبار الطقس، وأرقام الأسعار، ودرجات الحرارة ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤].

إن المتنبئ عاش نعمة الألم، ولذة المعاناة، وسرور الحرمان فقال:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله   وأخو الجهالة في الشقاوة ينعمُ

فلا حيًّا الله لذة في جهل، ومتعة في ذلة، وحياة في خضوع، ومرحباً بموت على عز، ومصيبة على كرامة، وتضحية معها مجد، يقول هو:

جزى الله المسير إليك خيراً   وإن ترك المطايا كالمزاد

فكل مشقة في سبيل العليا هينة، وكل تعب من أجل المجد راحة، يقول:

يهون علينا أن تُصاب جُسُومنا   وتسلم أعراض لنا وعقول

فما دام العرض مصون، والعقل محفوظ، فجرح الجسم سهل يسير.

شاعر الحنين وأستاذ الوفاء

لأبي الطيب طعم خاص في عالم الحنين إلى أهله وشبابه وموطنه، حتى مع من طرده وأقصاه ونفاه، يقول لسيف الدولة بعدما فارقه إلى مصر:

رمى واتقى رميي ومن دون ما اتقى هوًى كاسرٌ كفّي وقوسي وأسهُمي

ومعنى البيت أن سيف الدولة رماني ـ سامحه الله ـ بالجفاء والإبعاد وأنا لا أستطيع أن أرميه؛ لأن له في قلبي محبة دفينة، ووداً دافئاً، وميلاً كامناً، كلما أردت أن أرميه وأنتقم منه كسر هواه وحبه في قلبي كفي وقوسي وأسهمي، ولكن انظر إلى نصاعة البيت وحلاوته وانسيابه.

ويفارق أحبابه فيصرخ:

يا من يعز علينا أن نفارقهم وجداننا كل شيء بعدكم عدمُ

يعني يوم ارتحلنا عنكم مكرهين أظلمت أمامنا الطرق، وسدت في وجوهنا الأبواب، وما عاد شيء يبهجنا، وما صار لدينا متعة تسلينا، ولا منظر يعجبنا. بل قال عن وفائه وحفظه للعهد:

خلقت أَلُوفًا لو رَجَعْت إلى الصِّبا لفارقتُ شيبي موجَعَ القلبِ باكيَا

يا ألله! إلى هذا الحد وصل بك الوفاء يا شاعر العربية. إن الإيحاء الشعري فوق قضية البحر والوزن والقافية والروي، إنه سر يجري في الأبيات، وسحر

يكمن في القصائد، يفعل بالأرواح فعل الغرام الهائج، أو الهيام المائج، وللمتنبي في باب الحنين مقامات مثيرة وشجون آسرة يقول:

نحن أدرى وقد سألنا بنجد أطويل طريقنا أم يطول

وكثير من السؤال اشتياق وكثير من رده تعليل

لله درك يا بن الحسين، يا صاحب البديهة الحية والقافية الذائعة، لقد سكبت على قلوبنا فيوضات من الشجون الذي لا ينتهي، والحنين الذي لا يهدأ.

أما أولئك الشعراء الذين يملؤون بطونهم من طعام الخليفة، حتى إذا أتخم أحدهم قام ينظم قصيدة طويلة ثقيلة باردة سمجة، فلن نقرأ لهم جزاءً وفاقاً على بلادتهم وغباوتهم.

ويقول أبو الطيب وهو يحن لمدوحه، يعده بحسن تعاهده، وحفظ مودته:

أروح وقد ختمت على فؤادي بحبك أن يحل به سواكاً

فانظر كيف أغلق قلبه وسد منافذه لئلا يصل إليه محبوب آخر، واسمع إلى دفء هذا الحنين:

ما لاح برق أو ترنم طائر إلا انثنيت ولي فؤاد شيق

إن مرهف الإحساس، صافي الروح، تذكره المشاهد أحبابه، فيذكر ملاعب الصبا، ومراتع الشباب، ومعاهد الطفولة، ومنازل الأصحاب، وخيام الجيران، أما المعاق نفسياً، الميت عاطفياً، فله حديث مع الخبز، وقصة مع الفول، وقصيدة مع التمر الهندي:

من لم يبت والحب ملئ فؤاده لم يدر كيف تفتت الأكبادِ

وقديماً قال أحدهم:

ولو كنت عذري المحبة لم تكن بطينا وأنساك الهوى كثرة الأكل

وقال آخر:

ولما ادعيتُ الحب قالت كذبتني ألست أرى الأعضاء منك كواسيا

وقال آخر:

يُبكى علينا ولا نبكي على أحد لنحن أغلظ أكباداً من الإبل

أما المتنبئ فقد ذابت حشاشته مما به من الحنين يقول:

وعذلت أهل العشق حتى ذقته فعجبت كيف يموت من لا يعشقُ

ويقول:

كفى بجسمي نحولاً أنني رجل لولا مخاطبتي إياك لم ترني

المتنبئ والحب

الحب أرق كلمة في قاموس الحياة، وأجمل لفظة في دفتر الوجود، وأبهى عبارة في ديوان المعرفة، إنه صلة الروح بالروح، وضم القلب للقلب، وعناق النفس للنفس، وأعرف الناس بمعاني الحب وأسراره هم الشعراء؛ لأن عواطفهم جائشة، وجوانحهم مجنحة، ومنهم كبيرهم الذي علمهم سحر الكلمة وهو المتنبئ.

وتعال معي في بهو الحب ومع أبي الطيب إذ يقول:

أرق علـــى أرق ومثلـــي يأرقُ   وجـوًى يزيـد وعبـرة تترقرقُ

جهد الصبابة أن تكون كما أرى   عين مُسَـــهَّدة وقلـب يخفـقُ

فأنت ترى أنه كلام خبير بالحب، بصير بمذاهبه، غامض على حقائقه، وانظر إلى تفننه وعجيب اقتداره في الرقيب، وخيانة الضمير، وغيض الدمع وابتداره ويقول:

حاشى الرقيب فخانته ضمائره   وغيّض الدمع فانهلّت بـوادره

وكاتم الحـب يوم البين منهتك   وصاحب الدمع لا تَخْفَى سرائره

فهو ليس صانع كلام، ولا مزخرف قول، بل ذائق عارف، ويقول في مطلع قصيدة:

باد هواك صبرت أم لم تصـبرا   وبكاك إن لم يجر دمعك أو جرى

فهو يصف لك ظاهرة من ظواهر الحب، وهو تجلد المحب وكتمانه لحبه، ولكن دمعه يفضحه رغم حبسه.

ويقدم لك نفسه على أنه مصاب بداء الحب، قتيل بالأعين النُّجّل:

فمن شاء فلينظر إليَّ فمنظري نذيرٌ إلى من ظن أن الهوى سهلُ

ثم تشرق نفسه بمعنى بديع من معانيه الفائقة:

كأن رقيباً منك سَدّ مسامعي عن العذل حتى ليس يدخلها العذلُ

وهو معنى معروف عند الشعراء، يقول محمد بن داود:

كأن رقيباً منك يرعى خواطري وآخر يرعى ناظري ولساني

ثم يأتي بصورة خلابة تفرد بها ـ فيما أعلم ـ يقول:

قالت وقد رأت اصفراري من به وتنهدت فأجبتها المتنهّدُ

فهو شاعر ثري التجربة، عامر الموهبة، صحيح المحبة، يقول:

خريدة لو رأتها الشمس ما طلعت ولو رآها قضيب البان لم يَمِسِ

فانظر إلى حضور الصورة في ذهنه، وجودة خاطره بالموصوف، وسرعة استحضاره للمشاهد، ويقول:

نشرت ثلاث ذوائب من شعرها في ليلة فأرت ليالي أربعا

واستقبلت بدر السماء بوجهها فأرتني القمرين في ليل معا

إن صاحب هذه الأبيات له ذاكرة وقادة، وطبيعة منقادة، فليس بارد المشاعر، جاف العواطف، بل هو أحق بقول القائل:

وقاد ذهن إذا سالت قريحته يكا يُخشى عليه من تلهبه

وكلما غير قافيته حضرته صورة من الحب والنسيب في حلل وارفة من بديع الوشي، وغالي النسيج، يقول في مقام آخر:

عُجْنَا فأذْهَبَ ما أبقى الفراق لنا   من العقول وما رد الـذي ذهـبا
ســقيته عبــرات ظنهـا مطــراً   ســوائلاً من جفون ظنها سحبا

إنه التفرد في الجودة، والتوحد في الآلة، حتى يفرض عليك الاستماع له، والإعجاب بنتاجه الرصين؛ لأن الرجل عميق في فنه، موهوب في عطائه، وأصيل في موهبته. وانظر إلى قصيده وهو يناجي الأرواح بما يحمله من حب وحنين وشوق ولوعة، يقول:

ليالِيَّ بَعْد الظاعنين شــكول   طـوال وليـل العاشـقين طويل

فانظر إلى حسن تأتيه للمعني، وبراعة استهلاله، واكتمال هذا البيت، حتى صار كالعنوان على الكتاب، والوشم على الكف. وانصت لهذا الالتياع والوجد للمنازل في هذا المطلع الخلاب:

لك يا منازلُ في القلوب منازل   أقفرت أنت وهن منـك أواهل

فتبقى تردد معه مشدوها بطريقة اختياره وجمال بنائه، وهذا مطلع أنيق يظهر مادة الغرام في نفس هذا لشاعر الموهوب يقول:

وفاؤكما كالربـع أشجاه طاسـِمُه   بأن تُسْعِدا والدمع أشفاهُ ساجِمُه

فهو يمزج الحكمة بالحب بالعاطفة بالحنين، مع سهولة راقية في اللفظ، وجزالة وارفة في المعنى، ومذهب سديد في الإبداع، فحب المتنبئ حب ميل إلى الجمال، وإعجاب بالحسن، وشغف بالبهاء، وهو ليس وقفاً على المرأة، بل حب وفاء لأصحابه، من ملك، أو صديق، أو منزل، أو دار، لأنه أُلوفٌ يحفظ العهد، ويرعى الذمة، ويتعاهد الذكريات، ويرعى الوداد، ويبكي بكاء الأبطال، ويتفجع تفجع الشجعان، ويتوجع توجع العظماء، ولكنّه في النهاية إنسان له قلب ضعيف، وعواطف متأججة، ودموع حارة، ونفس تذوب للجمال، وتطير إلى الكمال، وتعشق الحسن.

العلماء يستشهدون بشعر المتنبئ

ما رأيت عالماً فذاً جاء بعد المتنبئ إلا استشهد بشعره في معرض حديثه، من موعظة وتفسير، أو سلوك، أو تربية، أو تاريخ، وقد مسحت كتباً كثيرة شهيرة فإذا للمتنبئ عشرات الأبيات منثورة في غضون هذه المجلدات، مثل إحياء علوم الدين للغزالي فله عنده قرابة عشرين بيتاً، وابن الجوزي مغرم في كتبه بالمتنبئ، وابن حزم مولع بشواهده، وابن تيمية يهش لنوادره، ويورد بدائعه، وابن القيم ينتقي مقطوعات ثمينة في كتبه، وعلماء التراجم يوشحون السير بشعره، والمؤرخون تسعفهم أبياته عند العرض والاستنتاج، والوعاظ يهزون الناس بقوافيه، والملوك يديرون أدبه في مجالسهم، والأدباء يضمنون نتاجهم فيض المتنبئ، والكتاب يزينون مقالاتهم بتحفه الغالية. وبالجملة فلا أعلم شاعراً عربياً قديماً أو حديثاً شرق وغرب شعره، وخلد نتاجه كهذا الشاعر، شهادة يؤديها الأدباء، ويقوم بها الشعراء، ويصدقها أرباب البيان، وكأن المتنبئ يعني هذا لما قال في شعره:

إذا قلته لم يمتنع من وصوله ... جدار معلّي أو خباء مطنّب

وقصدي من هذا الفصل إخبارك أن الشاعر الفذ هو من بقي حضوره، ودام ذيوعه، وفرض احترامه على محبيه، ووجوده على حاسديه، وكذلك كان المتنبئ، فهو أشهر شاعر سمع به الناس، واحتفلت بشعره المنابر، وهضمت جمله الدفاتر، وتشنفت بقوافيه الآذان، ولعلعت بقصائده المجالس ليصح في شعره قوله:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي ... وأسمعت كلماتي من به صمم

جواهر ثمينة في عقد المتنبئ

أهدى المتنبئ للأدب العربي جواهر ثمينة من غالي الكلم، يعرف قيمتها هواة الحرف، فغيره من الشعراء أحسن في بعض أبياته، ولكن هذا الشاعر أحسن في قصائده، وهذه جماليات فاتنة من جيد شعره، لا يحدها فن من وصف أو غزل أو مدح أو حكمة، خذ قوله في الصفح الجميل:

وفيك إذا جنى الجاني أناة　　　تظن كرامة وهي احتقار

فأنت لو ذهبت تنثر هذا العقد الفريد، لجعلته كلاماً منثوراً لا يحفظ، ولا ينقل، وإنما سبيله الإهمال والإغفال، ولكن طالع إلى سبقه للمعنى، وسبكه للفظ، ورشاقته في العرض، وعلى قوله تعالى عن الأعداء: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١] يقول:

ويحتقر الحساد عن ذكره لهم　　　كأنهم في الخلق ما خلقوا بعدُ

وهذا غاية المدح في عظيم يمتهن أعداءه، ويحتقر حساده، إلى درجة أنه يعاملهم معاملة المعدوم الذي لم يخلق بعد، وهل لهذه سابقة لهذا المتفرد اللوذعي.

وفي الذكر الحسن وتصويره بالحلل الجميلة التي تستر الجسم في بهاء، وتظهر الملبوس في سناء يقول:

ورفلت في حلل الثناء وإنما　　　عدم الثناء نهاية الإعدامِ

فهو حائك يجيد نسج الكلام بعناية، ويختار الكلمات بقصد، ويعمد إلى أجل المعاني بترصد وتعمد.

وفي باب كل حلاف مهين، يفاجئنا بنظرية تربوية ونفسية لا أعلم أحداً سبقه إليها، فقال:

وفي اليمين على ما أنت واعده ما دل أنك فـي الميعـاد متهـمُ

فكثرة الحلف مظنة الكذب﴿ وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ ﴾ [القلم: ١٠] .

وهل البلاغة إلاّ أصابت كبد المعنى بإيجاز من القول، مع سلامة من الإعياء اللفظي، ونجاة من الإسفاف، وترفع عن الرخيص من اللفظ.

وفي مسألة: وجزاء سيئة سيئة مثلها، تثور ذاكرته الهادرة بهذه الحكمة.

إذا أنت الإسـاءة مـن وضـيع ولـم ألُـم المسـيءَ فمـن ألـومُ

وهذا البيت له قوته وسمو معناه، ما يكفل له الخلود والانتشار؛ لأن الناس يعيشون كل يوم هذه المأساة، وهي جناية الأنذال، وحماقات الأشرار الذين يستحقون التبكيت والقصاص المر.

ويُحلّق عالياً في المدح؛ ليصف ممدُوحِيه بالشجاعة، إلى درجة أنهم يرون الموت أمنية، والفناء مطلباً، والبارود مسكاً زكياً في الأنوف، فيقول:

كأنهم يردون المـوت مـن ظمأ وينشـقون مـن البارود ريحانا

وكأني بالممدوحين وقد ذابت نفوسهم فرحة، وامتلأت صدورهم بهجة وعمت وجوههم نضرة النعيم.

ويغوص ـ حسبه الله ـ باقتدار وموهبة ذكية على معنى شرعي أدبي فيقول في ممدوحه:

عليك منك إذا أخليت مرتقب   لم تأت في السر ما لم تأت إعلانا

فهو يصفه بحياة الضمير، وحضور المراقبة، والوضوح المشرق، والبعد عن النفاق والالتواء، وهذا من دقيق فهمه، ومن ثراء مخزونه الثقافي الجياش؛ لأننا سئمنا المديح المكرر الممجوج، الذي توارد عليه الشعراء، من أن ممدوحه يكرم الضيف، ويضرب بالسيف، وينحر الناقة السمينة، ويقتل البطل الصنديد.

وتعال إليه وهو ينوّه بنفسه على عادته في الإعجاب بها، والافتتان بجدارتها، ويقول:

وما كل من يهوى يعف إذا خلا   عفافي ويُرْضِي الحبّ والخيل تلتقي

فهما تقوى في خلوة حيث لا رقيب إلا الله، ولا حارس إلا الضمير.

وله فلسفة باهية، ونظرات جسورة، وتأمل دقيق، يقول في الحب:

وأحلى الهوى ما شك في الوصل ربُّه   وفي الهجر فهو الدهر يرجو ويتقي

ومع جزالة المعنى حلاوة في اللفظ، ونضارة في القالب، حتى كأنك تمضغ حبات السكر، أو تعب ماءً نميراً، أو تذوق عسلاً مصفًّى.

وهو بارع في جل حكمه، وفي غالب مدائحه، وفي أكثر مذاهبه الشاعرية، واستمع إليه ليحدثنا عن قضية عاشها الناس جميعاً ولكنهم يغفلون عنها، يقول:

إذا ما لبِسْتَ الدهرَ مستمتعاً به تخرقْتَ والملبوسُ لم يتخرقِ

فقف بقلبك أمام هذه اللوحة الهائمة الحسناء، واقرأ جملة لبست الدهر وكلمة تخرقت، ثم تأمل المعنى، وتدبر مفهوم الكلام؛ لترى عقل شاعر جبار، وأديب خطير، ويتحفنا ـ لا فُضَّ فُوه ـ بفائدة علمية جليلة، لكنه لا يهديها لنا سامجة بل مزينة معطرة محلاّة، فيقول في خشوع القلب:

وإطراق طرف العين ليس بنافع إذا كان طرف القلب ليس بمطرق

فللقلب طرف كما للعين طرف، وله إطراق كما إطراق العين، لكن إطراقه أسمى وأجل، فيا لها من صورة بديعة، ومن خيال خصب.

وله في عالم التمثيل بروز وسبق يناسب تقدمه في فنه، يقول في جودة استماع ممدوحه إذا سُئِل العطاء:

كأن كل سؤال في مسامعه قميص يوسف في أجفان يعقوب

وكأني بك وقفت على نصف البيت الأول تنتظر المشبه به، وتتحرى صورة بديعة من التمثيل تشبع الخيال، وتملأ العاطفة، فيسعفك بهذا الوصف المشرق الوضيء السامق، المنتزع من القرآن الكريم، فيمتلئ الجو بهاءً وسناءً وإبداعاً.

ويشيِّع ممدوحه بعدما ارتحل من هذه الحياة فيتوجه بقوله:

كَفَلَ الثناءُ له بردُ حياتِه لمَّا انطوى فكأنهُ منشورُ

فما أبدع ما قال، وما أظرف ما نطق به، وانظر إلى قوله كفل الثناء له برد حياته، فهو لم يمت أصلاً فله من الحضور والذكر الجميل والثناء الحسن ما

يجعله حيًّا بين محبيه، وانظر إلى قوله لما انطوى فكأنه منشور، فهو قماش يطوى وينشر، يطويه الموت، وينشره الثناء الحسن.

ويصف ممدوحه بعلو الهمة والابتعاد عن الكسل والخمول فيقول:

كثير سهاد العين من غير علة   يؤرقــه فيما يشــرفه الفكـر

فطالع المديح الدقيق، والاحتراز في قوله من غير علة، ليبعد عن ممدوحه سهاد المرض، كما قال عز وجل:﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [طه: ٢٢]، ثم اختياره لكلمة يؤرقه، فهي أجمل من ينبهه ويسهره في موضعها، ثم إن سهر ممدوحه ليس على معصية أو سلوة أو لهو، بل هو تفكر فيما يرفع ذكره، ويبني مجده، ويتلطف في بديع مدحه ويقول:

فلا تبلغاه ما أقول فإنــه   شجاع متى يذكر له الطعن يشتق

فارع سمعك لهذه الشفافية المرهفة، والروح المتألقة؛ لترى مدى قوة أسره، ومعرفته بأسرار التأثير.

ويعتذر لنفسه في الحب، ويلتمس من اللائمين العذر له فيرسل لنا هذه الجوهرة:

وما كنت ممن يدخل الحب قلبه   ولكنّ من يبصر جفونك يعشق

فهل سمعت أن شاعراً سبق هذا الإمبراطور إلى هذا الفتح المبين في عالم الشعر، وفي اقتناص درر القريض، والغوص على جواهره. فحيًّا الله فصاحة بذكاء، وبياناً بفهم، وبلاغة بعبقرية.

والمتنبئ سابق في نقل الصورة إلى المشاهد، ورسم المثال في الذهن، فهو أبرع في الرسم من ريشة رسام حذق متمرس، اسمع له يقول:

ألذ من الصهباء بالماء ذِكْرُهُ   وأحسن من يُسْرٍ تلقَّاه مُعدِمُ

فمذهب التجديد يحمل لواءه هذا الشاعر المصقع؛ لأننا بقينا قبله نعيش على مديح مطرد تقليدي لا يغير ولا يبدل، يوصف فيه الممدوح بالليث والغيث وأن كفه غمامة، وبيته منهل ماء، وناره من الكرم لاتنطفئ إلى آخر تلك القائمة المحفوظة عن ظهر قلب.

وتعال معي إلى ورقة من دفتر اختراعه، وديوان إبداعه يقول فيها:

أحقهم بالسيف من ضرب الطلى   وبالأمن من هانتْ عليهِ الشدائدُ

ومعناه أن أولى الناس بأن يتقلد السيف والولاية من ضرب رؤوس الأعداء بسيفه أي شجاعاً، وأولاهم بأن يأمن جانب عدوه من هانت عليه شدائد الحياة ومصاعب العلياء وغمرات الحروب، إن بإمكان أي خطيب أن يمطرنا بهذا المعنى في نثر بهيج، لكن أن يقدمه لنا في لوحة مائسة ووشي منمنم فهذا من مهمة أبي الطيب شاعر الدنيا.

وهو يتحفك بتجربة رائدة عثر عليها في حياة المتاعب والعواصف يقول:

وما الخوف إلاّ ما تخوفه الفتى   وما الأمن إلاّ ما رآه الفتى أمنا

فليس الخوف هو ما أتت به الحوادث والنكبات، وإنما شعور المرء بالخوف أعظم من نفس الحدث كما قال أحدهم:

لعمرك ما المكروه إلا انتظاره   وأعظم مما حل ما يتوقع

ودونك ـ رعاك الله ـ نفحة زكية من حديقة فكره المغدقة:

وللحساد عذرٌ أن يَشِحّوا ... على نظري إليه وأن يذوبوا

فإني قد وصلت إلى مكان ... عليه تحسد الحدقَ القلوبُ

فالرجل لا يفارقه جمال العبارة، وخصوبة الخيال، وروعة التعبير، فبديهته حاضرة، وقلبه شهيد، وريشته تقطر إبداعاً وفتنة. وما سمعنا بشاعر اعتذر لحساده وسامحهم إلا هو، وليس كرماً منه لهم، وإنما نكاية بهم، ورفعة للمدوح بحيلة ذكية.

وقف قليلاً معه وهو يتحدث مع الزمان، يقول:

أتى الزمانَ بنوه في شبيبته ... فسرَّهُم وأتيناهُ على الهرمِ

فهو يرى أنه متأخر رتبة، ولو أنه متقدم لفظاً؛ لأن الزمان الذي عاش فيه زمان لا يقدر العظماء، ولايحتفل بالنوابغ، ولا يكرم الأفذاذ، ويقول أيضاً:

أريد من زمني ذا أن يبلغني ... ما ليس يبلغه من نفسه الزمنُ

فلا زمانه يساعده، ولا أصدقاؤه يعضدونه، ولاحساده يتركونه، ولا الملوك يحتفلون به، ولكن عزاؤه هذا الشعر السائر الخالد، الذي بقي عبقه في أنوف الجهابذة، ودويّ صوته في آذان الأجيال، فهو أعظم شاهد على جدارة هذا النابغة، وسطوعه ولموعه، كما قال:

وتركك في الدنيا دويًا كأنما ... تداولَ سمعَ المرءِ أنمُلُه العشرُ

المتنبئ وجنون العظمة

المتنبئ شاعر هائج مائج، هدار موار، كالبركان يرمي بالحمم، مارد كالريح القاصف العاصف، فهو لا يؤمن بالمهادنة والتروي والانتظار، فهو إما متوجع متفجع، وإما شاك باكٍ، وإما غاضب ناقم، وإما مظلوم مهضوم، وإما ساطع لامع، غير أنه ليس ساكناً كامناً، بل هو في الحقيقة مالئ الدنيا، وشاغل الناس، وبسبب هذه المعاندة والإباء والمشاكسة طار ذكره، وشع بيانه، وساح في الناس أدبه.

إن الذين يريدون التأثير في الأجيال، ثم لا ينفضون من حولهم بنتاجهم وعلمهم وأدبهم وخطبهم، إنما هم أموات غير أحياء، وما يشعرون أيان يُبعثون.

إن أهل الدعة والخمول نسخ مكررة، يراها الناس ملء الشوارع والأسواق، ولكن العباقرة أندر من الكبريت الأحمر، فهم يشاركون الناس في الصورة الظاهرة، ويفوقونهم في المواهب والصفات، كما قال المتنبئ نفسه:

وإن تفق الأنام وأنت منهم ... فإن المسك بعض دم الغزال

ولكن المتنبئ طغى به بيانه، وحدثته نفسه بأنه فريد العالم، ووحيد الدهر، ورجل الدنيا، فترجم ذلك شعراً، يقول:

أي محل أرتقي ... أي عظيم أتقي

وكل ما قد خلق الله ... وما لم يخلق

محتقر في همتي ... كشعرة في مفرقي

نستغفر الله ونتوب إليه من هذا الغلو الفاحش، والطغيان الجارف، وكما سلف معنا فقد نظر العُمّي إلى أدبه وسمع الصُّم كلماتِه:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

وها هو يصف نفسه بأعجوبة الزمان ونادرة الكون:

إليّ لعمري قصدُ كلِ عجيبةٍ كأني عجيب في عيون العجائبِ

بأي بلاد لم أجرّ ذؤابتي وأي مكان لم تطأه ركائبي

وهو عند نفسه وحيد في بابه، لم ينسج على منواله أحد، ولن يتكرر وجوده في الناس، وشعره حديث البشر وقضية القضايا:

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصمُ

فالناس مشغولون بشعره، منهمكون في عظمته، مستغرقون في دراسة أدبه، هكذا يتصور ويفكر ويقدر، بل ينصحك أن لا تسمع إلا له، ولا تنظر في شعر سواه، فإن غيره إذا تكلم فسد الكلام ومج الحديث ورخص القول:

ولا تبال بشعر بعد شاعره قد أُفسد القول حتى أُحمد الصمم

ويرى أن الشعراء قد عجزوا عن مجاراته، وافلسوا في السباق معه، ويقول:

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق أراه غباري ثم قال له الحق

أي أن سيف الدولة إذا أراد أن يضحك لشاعر ويسخر منه، أراه غبار المتنبئ السابق المتفرد، ثم قال لهذا الأحمق: أدرك ذاك الجواد المضمر وهيهات، ثم يقول:

وما كمد الحساد شيء قصدته ولكنه من يزحم البحر يغرقِ

فقد غرق الحساد في بحر عظمته، وهو لم يرد ذلك أصلاً، ولكنهم هم الذين تعرضوا له.

وله في مدح نفسه كلمات سائرة، مرة يثني على نفسه الجليلة عنده، العزيزة لديه، ومرة يبارك شعره ويتبجح به، وأخرى يصب جام غضبه على أعدائه، ويتعجب من جهلهم به وبمقداره، وعدم اعترافهم بنبوغه وتفوقه. واسمع له يترنح في غمرة عجبه، ويسكر بكأس تبجحه، ويسبح في خيال وهمه الذي أوحى إليه من زخرف القول غروراً جامحاً، وتيهاً جارفاً، يقول:

أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر وحيداً وما قولي كذا ومعي الصبرُ

وأشجع منّي كل يوم سلامتي وما ثبتت إلا وفي نفسها أمرُ

تمرست بالآفات حتى تركتها تقول أمات الموتُ أم ذُعِرَ الذعرُ

وأقدمت إقدام الأتيِّ كأن لي سوى مهجتي أو كان لي عندها وتر

وكلما أردنا أن نغضب منه لهذا الجموح الطاغي، والتعالي المرفوض، أرضانا بهذا القول الخلاب، والسحر الجذاب، والمنطق السالب للعقول، فسكتنا عاتبين.

إن العباقرة يجدون تحدياً سافراً من الأغبياء، وظلماً ظاهراً من البلداء فتثور ثائرتهم، وتغلي مراجلهم، وتضطرب جوانحهم، ومنهم هذا الشاعر الذي فتح جبهات مع خصومه، ودخل معارك ضارية مع حساده، وأصبحت حربه معهم حرب بقاء أو إبادة، حياة أو موتٍ، وجودٍ أم عدمٍ. ليس عند المتنبئ تواضع الصالحين،

ولا إخبات الأولياء، ولا ورع العلماء؛ لأنه طالب شهرة، قانص مجد، باحث عن إمارة، ساع يلهث وراء الجاه والصدارة ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]:

ألا بلغ الله الحمى من يريده   وبلغ أطراف الحمى من يريدها

المتنبئ والنجومية

خاض المتنبئ حرب النجوم في عالم البيان، ورفض الاستسلام لخصومه وأوصى محبيه أن لا يرضوا بغير النجومية:

إذا غامـرت فـي شـرف مـروم   فـلا تقنـع بمـا دون النجـومِ

فهو حاذق في معرفة طرق الصدارة، متعب نفسه وغيره في مباراة التحدي وإثبات الذات:

وإذا كانـت النفـوس كبـاراً   تعبت فـي مـرادها الأجسـامُ

ولا يرضيـه الرضى بالأقل، والقناعـة ببعض المجد، بل لابد من المجد كله، والكمال أجمعه:

ولـم أر في عيـوب الناس شيئاً   كنقـص القادريـن على التمامِ

وهو يفور غضباً، ويثور بركاناً على من يريد تحطيمه، والتقليل من شأنه، حتى إنه مر ببعض حساده في الطريق، فألقى عليهم هذه القذيفة:

لو استطعت ركبتُ الناسَ كلَّهمُ   إلى سعيد بـن عبدالله بُعْرانا

والويل كل الويل لمن أراد الانتقاص من هذا الأعجوبة، إنه سوف يبوء بإثمه، ويحسو كأس ندمه، ولو كان ملكاً مطاعاً، فهو يجر كافور ملك مصر من على كرسيه بهذه القذيفة:

لا تشتر العبد إلا والعصا معه   إن العبيـد لأنجـاس مناكيـدُ

وفي سبيل تحقيق نجوميته فكل شاعر سواه، فإنما هو شويعر حقير صغير، وهو وحده الخطير الشهير الكبير:

أفي كل يوم تحت ضِبْني شويعر ضعيف يقاويني قصير يطاولُ

فالكريم الذي لا يحتفل بالمتنبئ، ولا يكرم مثواه ويحسن وفادته، لئيم خسيس:

جود الرجال من الأيدي وجودهمُ من اللسان فلا كانوا ولا الجودُ

والذي لا يستمع إليه غر بليد، يقول في أحد هؤلاء الأغبياء:

صغرت عن المديح فقلتَ أُهْجَى كأنك ما صَغُرتَ عن الهجاءِ

وهو عند نفسه نادر المثال، لا يتكرر شبيه له، وهو غريب كما يرى في نبوغه وفصاحته:

أنا في أمة تداركها اللّـ ـه غريب كصالح في ثمودِ

وهو معدن آخر كما يرى، وله طينة أخرى، فهو كما يعتقد، متفرد متميز:

وحيد من الخلان في كل بلدةٍ إذا عظم المطلوب قل المساعدُ

وكأني به يرى سواه أقل منه رتبة، وأقصر قامة، وأصغر قدراً:

وربما أُشهدُ الطعام معي من لا يساوي الخبز الذي أكَلَهْ

ولا ينسى أن يذكر أصحابه بأنه نجم:

وإني لنجم تهتدي صحبتي به إذا حال من دون النجوم سحابُ

ويبشرك أن نفسه وثابة شابة، وبشاشة جيّاشة:

وفي الجسم نفس لا تشيب بشيبه ... ولو أنَّ ما في الوجه منه حِرابُ

فهو شاب الهمة، فتي العزيمة، متوقد القلب، لا يكل ولا يمل، حتى يبلغ مناه من النجومية، والتحليق عالياً في سماء النجاح. فلديه من الطموح إلى نيل مطالبه، وإدراك مقاصده، ما أتعب جسمه، وأنهك روحه، وعرضه للمخاطرة، وحمله على ركوب المهالك، وصح فيه قوله من قصيدة له عامرة:

وأتعب خلق الله من زاد همّه ... وقصر عما تشتهي النفس وجْدُهُ

وفي الناس من يرضى بميسور عيشه ... ومركوبه رجلاه والثوبُ جلدهُ

ولكنّ قلباً بين جنبيَّ ما لَهُ ... مدًى ينتهي بي في مراد أحُدّهُ

يرى جسمه يُكْسى شُفوفاً تَرُبُّه ... فيختار أن يُكْسى دروعاً تهدّهُ

رحلة ممتعة في زورق الإبداع

لابد لعشاق البيان، وهواة جمال الكلمة، ونصاعة القول، من ذائقة فنية، وحاسة سادسة للتمتع بطعم التأثير المشرق لسحر الكلام، وإلا فلا فائدة من عَرْض تُحَفِ البيان على عُمْي البصائر، وإبراز مخدرات الحسن على كل أكمه وأعشى، وما أعجبنا في المتنبئ غلوه في مدح نفسه، ولا تثاؤه على إنجازاته الخيالية، إنما أعجبنا هذا الوهج الفني، والبريق الذي يكاد يذهب بالأبصار، ثم سماء عبقريته، فهو بلا شك صاحب قدح معلًى في صياغة الكلمة، ونسج الجملة، حتى يلتفت لها القلب، ونحن معذورون في إعجابنا بشعره فقد سبقنا أساطين البيان، ودهاقنة الفصاحة، وأساتذة البديع، وكلهم معترفون بفصاحة هذا الشاعر، وتألقه وانفراده. فيا أخي اركب معنا في زورق الإبداع وربّانه أبوالطيب المتنبئ الذي يقول:

أنا السابق الهادي إلى ما أقوله   إذا القول قبل القائلين مقولُ

وسوف نسوق جُمَلاً ندية بسحره، مخضلة بطلاوته، عبقة بمسك فنه؛ لتكون كالشاهد على غيرها، والدليل على سواها، وكفاك غرة الفرس، وثغرة المحب، ونون العين:

له عين أصابت كل عين   وعين قد أصابتها العيون

وسوف نقتصر على نون العين من نتاج هذا الشاعر الثائر الطموح والباقعة المتألق:

قالوا خذ العين من كل فقلت لهم   في العين فضل ولكن ناظر العين

والآن هاك هذه الفرائد

وخير جليس في الأنام الكتاب

يقول أبو الطيب:

أعز مكان في الدُّنى سرج سابح وخيـر جليس في الأنـام كتابُ

فانظر كم اهتدى إلى معنى ثمين رائد، ثم أخذه فغَسَلَهُ وكواه، ووضعه وطبعه، وفصله بلفظ ساطع، وتركيب متناسق خلاب، فهل سبقه شاعر إلى اختراع هذا المعنى؟! إنه يقول لك: إن أشرف موضع يقعد فيه كل ماجد نبيل هو ظهر الفرس، حيث يقاتل العدو، ويحمي الحوزة، ويذود عن العرض، ويدافع عن الكرامة، ويبني المجد، وإن أفضل المجالس للمرء كتاب؛ حفظاً للعهد، واستثماراً للوقت، وبعداً عن الأذى، ومراعاة لحق الجليس، وإمداداً للعقل، ولكن أعد النظر في رصفه للكلمات الحرة الراقية، وبنائه للبيت بلا نشاز ولا التواء، إن من الشعراء من قد يجود بهذا المعنى؛ لكنه يضعه في قالب فج بكثرة حروف الجر والضمائر، والتقدير، والتأخير، والإسفاف، والحشو.

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله

يقول:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعمُ

لله دره، هكذا فلتكن الذاكرة الحية، والذهن الخصب الممرع، والتجربة الراشدة، إن العاقل الأريب لا يقر قراره لعطشه، ومعرفته بتغير الأيام، ودوران الليالي، ومفاجأة الحوادث، وهجوم المزعجات، أما الغبي الحافي، فهو كالبهيمة لا يرى إلا موطن قدميه، فهو في شقاوته يتنعم لجهله بالعواقب، وقلة خبرته بالنوائب، وانطماس بصيرته عن مشاهدة سنة الحياة؛ من العسر واليسر، والغنى والفقر، والسرور والحزن﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان : ٤٤].

يقول شكسبير: «الذكي يعيش من جنته في جحيم، والغبي يعيش من جحيمه في جنة»، ولكن تبقى الريادة للمتنبئ والسبق.

مصائب قوم عند قوم فوائد

يقول:

بذا قضت الأيام ما بين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد

فتطير هذه الحكمة في الآفاق، وتجري على الألسنة ، وتكون حاضرة على شفاه الخطباء والحكماء، وتشاهد على البيت توقيع المتنبئ الخاص الذي يميزه عن غيره، وانظر إلى جملة بذا قضت الأيام ما بين أهلها، فإذا هي عبارة مستقيمة صحيحة لا عوج فيها ولا أمتاً، ثم انظر إليه وهو يتسفز ذهنك لتترقب الحكمة القادمة فيبادرك بها: مصائب قوم عند قوم فوائد، فتكون هذه الحكمة ناطقة بعمق الرجل، وذكائه وسعة تجربته، وهو الاستفادة من نكبات الغير، وأخذ العبرة من ذلك، وهو منطق القرآن ﴿ .. فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ ﴾ [الحشر : ٢].

والمتنبئ قدير في جلب الحكمة الصادقة، وفى سبك اللفظ الجميل، فليس شعره من شعر الأعراب الساذج الباهت، وليس من شعر حفظة المتون العلمية المقننة المتكلف، بل هو سائغ للشاربين، يسر الناظرين.

ولا التذكير فخر للهلال

يوم رثى والدة سيف الدولة قال:

ولو كان النساءُ كمن فقدنا   لفضلت النساءُ على الرجالِ

فما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ   ولا التذكيرُ فخر للهلالِ

فأنت تشاهد انسياباً لذيذاً لايعكره حشو في اللفظ، ولا يكدره غرابة في اللغة، ولا يشوهه تبذل سوقي، بل تشاهد الفخامة، فهو يمهد لك بالبيت الأول حتى إذا تهيأت لسماع النظرية، واستقبال الدليل باشرك بالبيت الثاني في رقة وعذوبة، فكأنك تمضغ سكراً، أو تمص عنباً، خلاف ما تشاهده في كثير من الشعر الإنشادي الإنشائي أو التقريري الإخباري، أو الغريب الوحشي، ولهذا بز المتنبئ الشعراء في هذا الباب.

ذكر الفتى عمره الثاني

يقول:

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته   ما قاته وفضول العيش أشغالُ

فهذه ثلاثة مقاطع من الحكمة النادرة، والوعي الراشد، والتجارب المماثلة وما هذا الرجل إلا فيلسوف متأمل، يستولي على مكان الإعجاب فيك، وانظر إلى

إيجازه وفصاحته في قوله: ذكر الفتى عمره الثاني، انتهى المقطع ليكون قطعة ماس، أو حبة لؤلؤ مائسة، تقلبها في يدك فتزداد شرفاً وبريقاً، ولك أن تحدث العقلاء في مسألة الذكر الحسن فتقول: ذكر الفتى عمره الثاني، فتقنع الجميع بجلالة هذا الأمر والترغيب فيه، ثم تقول: وحاجته ما قاته، فتطبع درساً في القلوب، درساً لا ينسى في علم القناعة، بأقل لفظ، وأخف قول، وأصدق عبارة، ثم تقول: وفضول العيش أشغال، فتزّهد الناس في التكاثر، والانهماك في الجمع والتكالب على الدنيا، فإذا عبارة وفضول العيش أشغال كتاج مرصع على هامة كريمة، أو خاتم على رسالة، أو عنوان على كتاب، وانظر إلى قدرته في طي مسافات المعنى في اقتصاد من القول، وأبهة من البلاغة.

إن الثناء على التنبال تنبال

يقول:

وقد أطالَ ثنائي طولُ لابسِه إن الثناءَ على التنبالِ تنبالُ

ومعنى كلامه أنني قد أطلت الثناء على هذا الممدوح لكثرة مناقبه، وجلالة قدره، وغزارة خصاله؛ فلذلك وجدت مجالاً للكلام، بخلاف التنبال الذي هو القصير القزم التافة، فإن الثناء عليه قصير وشحيح؛ لأنه لا مجال للإسهاب في وصفه ومدحه، وقد أراد في هذا البيت أن يعتذر من الإطالة، فأتى بأحسن المدح في ممدوحه، ثم ختم البيت بقضية عادلة، وكلمة سائرة، وهي أنه بحسب الممدوح كرماً ولؤماً، يكون المدح طولاً وقصراً، كما أن الثياب تفصل على طول الناس وقصرهم، فكذلك الثناء، وهذا من دقيق نظره، وجدارته من اقتناص المعاني.

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته

يقول:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكـرمت اللئيـم تمردا

معناه: أن الكريم تملك وده ووفاءه بالإحسان إليه؛ فيكون لك مواليًا مصافيًا حافظًا لجميلك، ذاكرًا لإحسانك، بخلاف اللئيم، فلا يزيده الإحسان إلا تمردًا وتنكرًا؛ لخبث طبيعته، وسوء سيرته، ولؤم خلقه. وغالب الناس يعرفون هذا المعنى، لكن تقديمه لهم في عبارة شاردة، وحكمة فائقة، مطلب يهش له العقلاء، ويتوق له الأدباء، وقد قلنا لك: إن المتنبئ لا يعاضل بين الكلام، ولا يثقل البيت بالضمائر، وحروف الجر، والتقديم والتأخير، كما يفعله صفاف الشعراء، الذين يثقلون السامع بحشو الكلام، وزائد القول. وكم سمعنا من عامة الناس من يردد هذا البيت فضلاً عن طلبة العلم، وما ذاك إلا لاستيلاء هذا الشاعرعلى عرش الشهرة، وامتلاكه ساحة الأدب، وامتيازه بالأسر والتأثير.

غرقت فيه خواطره

يقول في ممدوحه:

إذا تغلغل فكر المرء في طَرَفٍ من مجده غرقتْ فيه خواطرُهُ

فهو هنا يترقى بك عن مدح الأعراب المكشوف إلى مدح دقيق، ومعنى عميق، يدل على علو كعبه في سعة الاطلاع، ورحابة المعرفة مع جودة الخاطر يقول هنا: إن هذا الممدوح إذا غاص فكر الإنسان في جزء واحد من مجده الواسع،

ومواهبه الجمة؛ استغرقت هذه الصفات كل خواطر هذا الإنسان واستولت على ذهنه وحيرته، فكيف بباقي صفاته وسائر خصاله، وهو ثناء نادر وقوعه في المدائح لدقته وغرابته، ولكنه لذيذ تعشقه النفوس لأنه فريد متوهج.

الرجل يتقطع أسفاً ويعلن التمرد على حياته

تمنٍّ يلــذ المســـتهام بذكــره وإن كان لا يغني فتيلاً ولايجدي

وغيظ على الأيام كالنار في الحشا ولكنه غيظ الأسير على القِدِّ

هكذا يغلي غضباً، ويصرخ نادماً، لكنه لاحيلة له، بل هو مثل الأسير في قيده، لا ينفعه غضبه من هذا القيد، وهو مشحون بالسخط من بني زمانه؛ لأنهم أنانيون وطمّاعون ليس معهم حل إلا السيف، حتى يحكم الله بينه وبينهم وهوخير الحاكمين:

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه إذا اتسعت في الحلم طُرْقُ المظالمِ

وأن ترد الماء الذي شــطره دمٌ فتُسقى إذا لم يُسْقَ من لم يُزاحِمِ

ومن عرف الأيام معرفتي بهــا وبالناس روّى رمحه غيرَ راحمِ

فليس بمرحوم إذا ظَفِـروا بـه ولا في الردى الجاري عليهم بآثمِ

هذا رأيه الصريح في بني جنسه وفي زمانه، إن الرجل ملتاع ملدوغ من حساده، منكوب من الأعداء، مضطهد من الملوك، ولكن كان لهذه النوائب نفعاً من إذكاء قلبه، واشتعال ضميره بهذا العطاء الجزل من البيان الجليل، والأدب النبيل، ولو أن المتنبئ سلم من هذه النكبات، لكان شعره مثلجاً كشعر المئات من الشعراء الباردين الثقلاء، الذين أغلوا علينا الأوراق والحبر، وخدعوا القارئ البسيط بحسن طباعة دواوينهم ليجد فيها غثاء من رخيص القول، وزبداً من تافه الحديث.

لكن أبا الطيب أنضجته المعاناة، فصارت تسيل على شفته قواف سائرة، تدعوك إلى العيش في ظلالها، وتأمل جمالها والتمتع بخمائلها، ونحن نعلم أن سبب هذا الهيجان العاطفي، والثوران النفسي، إنما هو لعدم نيله مطالبه الدنيوية الرخيصة، من منصب وصدارة وإمارة، فهو مغرم بهذه المقاصد، متيم بهذه الهوايات، ويحسبها أجل ما يناله المرء؛ لأن الرجل شاعر، وليس لديه من علم الوحي، وفقه الديانة، ونور الملة، ما يعصمه عن هذا المذهب، ويدله على ما هو أنفع وأرفع، وهو رضوان الله عز وجل ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ..﴾ [النحل: ٩٦].

حلاوة وطلاوة علت قوافيه الماتعة

إن كان قد ملك القلوب فإنه ... ملك الزمان بأرضه وسمائه

الشمس من حساده والنصر من ... قرنائه والسيف من أسمائه

أين الثلاثة من ثلاث خلاله ... من حسنه وإبائه ومضائه

مضت الدهور وما أتين بمثله ... ولقد أتى فعجزن عن نظرائه

يا لطيف! ما هذا الكلام الشريف، ارجع البصر كرتين إلى هذه الأبهة اللفظية كقوله: ملك القلوب، وما فيها من قوة وأسر ونفث سحر، وهذا ليس معروفاً عند شعراء الصحراء، وضعاف الأدباء، فإن ملك القلوب أعظم من ملك الأبدان، ثم جعل هذا الملك مسلماً للممدوح، وإنما أثبت له ملك الزمان بأرضه وسمائه، ثم طالع تشبيهه للممدوح بالشمس في الحسن، والنصر في الإباء، والسيف في المضاء، ولكن في تقسيم شاعري رائع، يناديك من أطراف قلبك إلى التيقظ، والتمتع بمسارح الجمال، ومرابع الخيال، في قالب فني كله رواء وطلاء، يذوب رقة، ويندى رشاقة، ويسكب لطفاً، وهذا سر أهمله كثير من الشعراء؛ لأنهم يأتون إلى معنى مكشوف بلفظ ساذج، ليس عليه حلة من الإبداع، كقول جرير في ممدوحه:

تعود صالح الأخلاق إني ... رأيت المرء يلزم ما استعادا

والحمد لله على السلامة، فما زادنا جرير على أن وزن لنا كلاماً لو تركه بلا وزن كان أسهل، أو كقوله:

أقلي اللوم عاذل والعتابا ... وقولي إن أصبت لقد أصابا

فانظر إلى هذا التقرير البارد والشعر الإخباري الثقيل.

وهذا ابن دريد يقول لنا في مطلع مقصورته:

يا ظبية أشبه شيء بالمها ... ترعى الخزامى بين أشجار النقا

فقد أفادنا أن الظبية مثل المها ـ ما شاء الله! ـ وأنها ـ والحمد لله ـ ترعى الخزامى بين أشجار النقا، هذا كل ما في البيت، فلا تتعب نفسك في الغوص على معانيه، وإخراج جواهره، فليس فيه إلا ما ذكرت.

وهذا الرازي يقول:

نهاية إقدام العقول عقال ... وغاية سعي العالمين ضلال

فأنت أمام كلام منطقي قانوني مدون، ليس له حلاوة، ولا طلاوة، ومعناه يفهمه الحاضر والباد.

وأين هذا من قول المتنبئ:

وأنا الذي اجتلب المنيةَ طرفُه ... فمن المطالب والقتيل القاتلُ؟!

فما أبدع ما قال! وما أمتع ما نطق به! فهنا يحق للذهن أن يتأمل، وللروح أن تنتشي، فهو يقول لك:

أنا المتسبب بنظري إلى الجمال حيث جنى طرفي عليّ، وأوردني حياض الموت، فلن أطالب أحداً بديتي، ولو كنت قتيلاً، فأنا القاتل في الحقيقة؛ لأنني نظرت بطرفي فقتلت.

وأين أقوالهم من قوله:

قد كنت أشفق من دمعي على بصري فاليوم كل عزيز بعدكم هانا

فشكراً لهذا الإبداع والتألق الفني، واللهيب والجذب، وكأنها أمثال في الذيوع والانتشار، وضع يدك على قلبك واقرأ معي قول أبي الطيب:

وما شَرَقي بالماء إلا تذكّراً لماء به أهل الحبيب نزولُ

يقول: إنني إذا غصصت بالماء وأنا أشربه على المائدة، فبسبب تذكري ماء نزل به أهل الحبيب، فلما ذكرت ذلك شَرِقْت بهذا الماء، واختنقت من شدة الأسى واللوعة. وقد أكرر هذا البيت كثيراً فأغالب دمعي، وأعصر غصصاً كامنة في نفسي.

شاعر يرسم بريشته الأحداث

يقول في سيف الدولة بعدما عُوفِي من مرضه:

المجدُ عوفي إذ عوفيت والكرمُ وزال عنك إلى أعدائك الألمُ

إلى أن يقول:

وما أخصك في برءٍ بتهنئة إذا سلمت فكل الناس قد سلموا

وكأني بهذا المريض المعافى يترنح طرباً، ويطير شوقاً من هذه التهنئة الحافلة، والأنشودة الراقية، التي انهمرت على الممدوح كغمامة هلت ماءها في صيف متوقد.

فهو يخبره أن المجد مرض بمرضه، وعوفي بعافيته، وكذلك الكرم، ثم يدعو الله أن ينقل ألم الممدوح إلى أعدائه، ثم يهنئ الناس كلهم بعافية هذا الماجد الشهم النبيل. وأرعه سمعك وهو يقول لسيف الدولة:

هو البحر غص فيه إذا كان ساكناً على الدر واحذره إذا كان مزبدا

فإني رأيتُ البحر يعثر بالفتى وهذا الذي يأتي الفتى متعمّدا

تظل ملوك الأرض خاشعة له تفارقه هلكى وتلقاه سجّدا

هذا مدح تنصت له أذن الدهر، وتهش له الجبال حفاوة واحتفالاً، ولن أشرحه هنا لأنه قريب منك؛ لكن في إباء سهل، لكن في امتناع مفهوم، لكن في عمق.

تحليق في سماء الإبداع

من الشعراء من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشى على رجلين، ومنهم من يمشى على أربع، ومنهم من يطير كالمتنبئ، لكن بارتفاع سبعة وثلاثين قدماً عن سطح البحر، فهو دائماً محلق، وإن اقترب أحياناً من الأرض، كما يقول هو عن العلو:

ذي المعالي فَلْيَعْلُوَنْ مَنْ تعالى ... هكذا هكذا وإلا فلا لا

شرف ينطح النجوم بِرَوْقَيـ ... ـهِ وعزٌّ يقلقل الأجبالا

فالرجل صاعد بموهبته، ولا يريد أن تقارنه بغيره من الشعراء:

أجزني إذا أُنشدتَ شعراً فإنما ... بشعري أتاك المادحون مردَّداَ

ودع كل صوت غير صوتي فإنني ... أنا الطائر المحكي والآخر الصّدى

فهو يطلب منك أن تفرده بالاستماع والإعجاب وحده؛ لأنه محلق وسواه ماش.

والآن يريد أن يخبرك بصعوبة المجد، وثمن التضحية، ومهر المعالي، فيقول:

تريدين لقيان المعالي رخيصة ... ولابد دون الشهد من إبر النحلِ

فنصف البيت مقدمة خطابية، والنصف الآخر دليل وبرهان، ولكن يسمو في أمثاله، فهو يستعمل التشبيه المعروف، ولكنه الراقي الذائع، وأراد أبو فراس الحمداني نفس المعاني فقال:

تهون علينا في المعالي نفوسنا ... ومن طلب الحسناء لم يغله المهر

وأنا أرى أن بيت المتنبئ أجمل وأكمل، وأما بيت أبي فراس فهو على شهرته به جدري في وجهه؛ لأنه قال لم يغله المهر أي أراد لم يغل عليه المهر، فلا يرقى إلى سمو شاعرية المتنبئ، وتدفق ذاكرته الخلابة الخصبة.

ويقول في باب آخر:

وما صبابة مشتاق على أمل   من اللقاء كمشتاق بلا أمل

فهو يخترع معنى بديعاً في الحب، ويوجد فارقاً معقولاً بين الشوق مع أمل اللقاء والشوق بغير أمل، فبيته أسمى وأرقى من قول الشاعر:

أحدث نفسي باللقاء وقربه   وأوهمها لكنها تتوهمُ

فإن البيت الأخير على جمال فيه ساذج مكشوف، وأحسن منه قول الشاعر:

أحدث النفس بالآمال أرقبها   ما أضْيَقَ العيشَ لولا فسحة الأمل

وأحسن من هذا وأجمل قول الشاعر:

منى إن تكن حقاً تكن أحسن المنى   وإلا فقد عشنا بها زمناً رغدا

ولكن جرس المتنبئ وموسيقاه لها طعم آخر، ومذاق يختلف عن كل مذاق.

حتى إنك إذا سمعت قوله:

وأنا الذي اجتلب المنية طرفُه   فمن المطالب والقتيل القاتل؟!

فإنه يطربك ويعجبك لأنه يغوص على المعنى، ثم يوشيه لفظاً أجمل من زهر الرياض، ثم يختار المفرد فيأسر قلبك، وأنت إذا أمعنت النظر في بيته المتقدم، لا تدرك المعنى من أول وهلة، حتى تتأمل وتمعن النظر، وتعيد البصر كرتين، لأن المعنى المتبذل المكشوف رخيص، كالبضاعة المعروضة بعرض الطريق؛ من خشب وحجارة، بخلاف الذهب والماس، فإنه يوضع خلف الأبواب عليه الأقفال لارتفاع ثمنه.

وقد طرق الأرجاني معنى المتنبئ:

أعينيَّ كفا عن فؤادي فإنه — من البغي سعي اثنين في قتل واحد

وبيت المتنبئ أرق وأمتع؛ لأن بيت الأرجاني فيه محاكمة قضائية وخصومة.

وقال آخر:

عوقب قلبي وجنى ناظري — وربما عوقب من لا جنى

وهذا بيت رث غث، ليس له إشراق وروعة كبيت أبي الطيب. وفي الغالب لا تقارن أبا الطيب بشاعر آخر إلا وجدت له تفوقاً وارتفاعاً، اسمعه يقول في وصف شجاعة ممدوحه:

تعود أن لا تقضم الحبَ خيلُه — إذا الهام لم ترفع جُنُوب العلائق

ولا ترد الغدران إلا وماؤها — من الدم كالريحان فوق الشقائق

فما أجمل الوصف، وما أجمل المدح، وقارنه بقول ابن عنين:

وتعاف خيلهم الورود بمنهل — ما لم يكن بدم الوقائع أحمرا

فإنك تجد المتنبئ أرقى صورة، وأشد تأثيراً، واسمع إليه في هذه الثلاثة الهائمة الساحرة:

إن كوتبوا أَوْ لُقُوا أو حوربوا وجدوا في الخط واللفظ والهيجاء فرسانا

كأن ألسنهم في النطق قد جُعِلَت على رماحهم في الطعن خرصانا

كأنهم يردون الموت من ظمأ أو ينشقون من الخطّيِّ ريحانا

واسمع غيره يقول:

كأن الهام في الهيجا عيون وقد طبقت سيوفك من رقاد

وقد صغت الأسنّة من هموم فما يخطرن إلا في فؤاد

وقال حساده إنه سرق المعاني من منصور النميري إذ يقول:

وإن موقعه بجمجمة الفتى حذر المنية أو نعاس الهاجع

وقول المهلهل:

الطاعن الطعنة النجلاء تحسبها نوماً أناخ بجفن العين يغفيها

وقول ابن المعتز:

أين الرماح التي غذيتها مهجاً مذ مت ما وردت قلباً ولا كبدا

وقول أبى تمام:

كأنه كان ترب الحب مذ زمن فليس يعجزه قلب ولا كبد

وليس عليها جميعاً ما يُقال له طيب، غير قول أبي الطيب، وأين فضل الطل من الوابل الصيب، فشاعرنا متفرد متوحد متميز.

مداخلات مع المتنبئ

في شارع رئيس من شوارع الرياض، مكتوب في لوحة إعلانية بارزة «وخير جليس في سهرة رمضان الإم بي سي!!»، وقصدهم إلغاء بيت المتنبئ الشهير: «وخير جليس في الأنام كتاب» وما أخذوا هذه العبارة إلا لشهرتها، ومعرفة الناس بها، وجاذبيتها، ويكفي المتنبئ شيوعاً أن أبياته صارت تحرف لمصالح دعائية وتجارية. وهذا هو الشرود الأدبي، والشيوع الثقافي الذي فرض حضوره على الناس.

بإمكانك أن تجعل من أشعاره جواباً لحواراتك مع محدثك؛ إن كنت فطناً ذا بديهة حية وذاكرة حاضرة.

فإن لامك على حب فقل:**«لا تعذل المشتاق»**، وإن سأل عن حالك فقل: **«واحر قلباه»**، وإن شكى إليك تعب المعالي فقل: **«لولا المشقة»**، وإذا شكى إليك الدنيا فقل: **«لحى الله ذي الدنيا»**، وإن مدح لك رجلاً موصوفاً بالفضل فقل:**«وإن تفق الأنام»**، وإن ذكر لك لؤم أحد الأنذال فقل: **«وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا»**، وإن أخبرك بمجاملاته لأعدائه فأنشده: **«ومن نكد الدنيا على الحر»**، وإن قال لك لقد تعبت في سفرك إلينا فقل له: **«جزى الله المسير إليك خيراً»**، وإن شكى إليك الحساد فقل: **«إني وإن لمت حاسديّ فما ∴ أنكر أني عقوبة لَهُمُ»**، وإن أخبرك ببعض المشكلات التي تواجهه فأنشده: **«إذا اعتاد الفتى خوض المنايا ∴ فأهون ما يمر به الوحول»**، وإن مدح لك امرأة بالدين والعقل والعلم فقل: **«ولو كان النساء كمن فقدنا ∴ لفضلت النساء على الرجال»**.

لغة البكاء عند المتنبئ

لهذا الشاعر الأعجوبة رحلة طويلة مع البكاء، فهو مصاب في والديه؛ إذ عاش يتيماً، مصاب في وطنه؛ فهو مشرد منفي، ومصاب في مقاصده؛ فلم يتم له ما يطمح إليه من إمارة باذخة ومنصب عالٍ. ثم إن فراق الأحبة مزق قلبه حتى قال:

لولا مفارقة الأحباب ما وجدت لها المنايا إلى أرواحنا سبلا

ويصبح باكياً من وحشة فراق أحبابه:

سهرت بعد رحيلي وحشة لَكمُ ثم استمر مريري وارْعَوَى الوَسَنُ

والرجل ملذوع بهذا النوى والشتات الذي أبعده عن أحبابه، وأقصاه عن أصحابه:

فراقٌ وَمَنْ فارقت غيرُ مذمِ وأَمٌّ وَمَنْ يممت خيرُ مُيَمَّمِ

لكن المتنبئ على رغم ظهور نفسه الجسورة، وروحه الطموحة في شعره، يمتلك نفساً رقيقة، عنده دموع غزيرة حارة، يدخرها للنكبات ليسفكها على فراق من يحب يقول:

قد كنت أشفق من دمعي على بصري فاليوم كل عزيز بعدكمِ هانا

ويقول:

عَشيّة يعدونا عن النظر البكا وعن لذة التوديع خوف التفرقِ

ويخاطب نفسه فيقول:

باد هواك صبرت أم لم تصبرا وبكاك إن لم يجر دمعك أو جرى

والحقيقية أن شعراء العربية بدعوا في فن البكاء، وتفننوا في هذا الغرض، فأجود فن لديهم الرثاء؛ لأنه الصادق الذي لا رياء فيه، ولا مداجاة. فهذا الصمة القشيري يتفجع بقوله:

بكت عيني اليمنى فلما زجرتها عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معاً

وهو معنى لطيف ظريف، وقد وافقه الأعور السلمي في بيتين مؤثرين إذ يقول:

بكيت بعين ليس فيها غضاضة وعين بها ريب من الحدثان

عذيرك ياعيني الصحيحة والبكا فما لك يا عوراء والهملان

وتلطف الشاعر السعدي الشيرازي، فأبدع وأحسن ما شاء أن يحسن فقال:

بكت عيني غداة البين دمعاً وأخرى بالبكا بخلت علينا

فعاقبت التي بالدمع ضنت بأن أغمضتها يوم التقينا

ولولا الاستطراد لأوردت أمثلة كثيرة على روعة هذا الفن عند الشعراء وإجادتهم له.

والشاهد أن المتنبئ يبكي في مواطن، شأنه شأن الشاعر ذي العاطفة الجياشة، والقلب الرقيق، والروح المرهفة، كيف لا وهو الذي يقول:

خلقتُ أَلُوفا لو رجعت إلى الصبا لفارقت شيبي مُوجَع القلب باكياً

فهو يبين لك أن نفسه المتوثبة إلى المجد، الثائرة على الأعداء، لها عالم آخر من الحنين والعطف واللوعة. فالرجل إذا بكى، بكى بنفس مكلومة، مفجوعة منهكة، مصابة بسهام الحوادث كما قال:

رماني الدهر بالأرزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال

فصرت إذا أصابتني سهام تكسرت النصال على النصال

إن بكاء المتنبئ ليس مفتعلاً، بل بكاء رجل ملذوع، ملسوع ملدوغ، فلا تتهمه في اصطناع البكاء، وتكلف الدموع، بل هي براهين على ذوبان نفسه، واحتراق جوانحه.

رحلة مع المتنبئ والشعراء: مقارنة ومفاضلة ومشابهة

أبو الطيب له أصدقاء وأعداء، شأن العباقرة اللامعين، والجهابذة الساطعين، فهو عند أصدقائه فرد في بابه، نجم في سمائه، أسطورة من أساطير الشعر، وهو ملك القافية عندهم، ورسول الإبداع، ولكنه عند أعدائه سارق من كيس غيره، عالة على سواه، يعدو على نتاج الشعراء، ويختلس معانيهم، ويزور أبياته، ويزخرف كلماته، وليس له جهد إلا نظم ما سبق، وهكذا وقع الخلاف على هذا الشاعر، وهكذا فلتكن العظمة. وأريد أن أذهب بك أيها القارئ في رحلة طويلة مع المتنبئ والشعراء، نستمع إليه وإليهم، ونقارن بين ما قالوه؛ لنرى من هو السابق منهم واللاحق.

يقول أبو الطيب كما ذكر ذلك الكندي وليس في ديوانه:

أبعين مفتقر إليك نظرتني وأهنتني وقذفتني من حالق

لست الملوم، أنا الملوم لأنني أنزلت آمالي بغير الخالق

وهذا المعنى لهج به الشعراء وأكثروا منه، لكن صياغة المتنبئ للمعنى فائقة وشائقة، وهذا غالب شعره، فإن المعنى قد يسبقه إليه شاعر؛ لكنه يكسو المعنى مطرفاً جميلاً، فكأنك ما سمعته من قبل، وعلى ذلك البيتين السابقين فقد قال الشاعر:

وكنت كالمتمني أن يرى فلقاً من الصباح فما أن رآه عمي

وقال غيره:

لما بـدا العـارض فـي خـده بشـرت قلبـي بالنعيم المقيـم

وقلـت هـذا عـارض ممطـر فجاءني منـه العـذاب الأليـم

فانظر إلى عذوبة ألفاظ المتنبئ وتميزها على ما ذكرته من أبيات، وهذا يدلك على قوة تخيله، وبراعة ذهنه، وجودة اختيار، ولله في خلقه شؤون!!

ولكن هذه العبقرية الشاعرية لها كبوات وعثرات، شأن العمل البشري، فإنهم شبهوا إنتاج العباقرة بالبيت، فيه مجلس للضيوف، وغرفة للأهل، ودار للطبخ، وهكذا، فتجد في عمل هؤلاء النابغين الإبداع الراقي الذي يخلب الألباب، ثم تجد السفول والابتذال، والمعنى الرخيص، واللفظ الموحش المزدرى.

ومن سقطات العبقرية قول المتنبئ:

كفى بجسمي نحولاً أنني رجـل لولا مخاطبتي إياك لـم ترنـي

فكيف يخاطب ممدوحه وقد مُحِيَ خلقه، وذاب شخصه، واندرس هيكله، وهذه مبالغة ممجوجة، استخف بها النقاد وحق لهم ذلك.

ويقول أبو الطيب:

فقلقلت بالهم الذي قلقل الحَشَا قلاقـل عيـسٍ كلهـن قلاقـل

وقال بعض الأدباء لما قرأ البيت: كأن الرجل فقد عقله لما قال هذا البيت، وقال آخر: ليته أراحنا من هذا البيت فقد أتعبنا وأضنانا.

ومثل هذا اللغو الخطابي، والغرابة الموحشة قول الأعشى:

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني   شاوٍ مشلٌ شلولٌ شلشلٌ شولُ

وهذا كلام سامج ساذج، سخيف ثقيل على السمع؛ لأن الإشراق والفصاحة مطلب بياني ومقصد شاعري.

ويذكرني هذا بيت أبي تمام الذي سهر عليه ليلة كاملة، ثم فتح عليه فقال مع الفجر وليته ما قال:

سلمى سلمت من العاهات ما سلمت   سلام سلمى وما قد أورق السلمُ

فانظر كيف سبكه ولبكه وحبكه وهاسه وداسه، وهذا ليس بشعر أو كما قال صفي الدين الحلي:

يا بلي البال قد بلبلت بالبال بالي   لنوى زلزلتني قد زال عقلي زوالي

وأعاذنا الله من هذه اللوثة والغثيان والسقط في القول. والمقصود أن المتنبئ كغيره من الشعراء، له عثرات في شعره مضحكة، حتى أنه لما قال في وصف الجبان:

إذا رأى غير شيء ظنه رجلا

قال النقاد غير شيء ليس موجوداً فكيف يراه؟! وهذا يخالف العقل، وقال في بيت آخر:

وعففت عما في سراويلاتها

فقلنا: ما هذه العفة الدنيئة واللغط والسقط والشطط؟! وليته سكت عن هذا الهذيان، وقال في قصيدة لعضد الدولة:

فما يُسمي كَفَنا خُسرَ مُسمٍ ولا يُكنى كَفَنا خُسرَ كاني

وكأن الرجل يتكلم بالأردو أو بالبشتو، ولعل العجيب في هذا البيت سوء التعقيد والوحشة.

ويقول في موطن آخر في ممدوحه:

العارضُ الهتن ابنُ العارضِ الهتنِ ابـ ـن العارض الهتن ابنِ العارضِ الهتنِ

فانظر كيف تقيأ هذا الكلام ولو بقي فيه لقتله.

وقال عن سيف الدولة يصف أجداده:

فحمدان حمدون وحمدون حارث وحارث لقمان ولقمان راشدِ

وهذا هو التكلف والنزق والطيش والسفه، والحمد لله على السلامة.

وهذا لا يعني أن هذا الشاعر عاجز فاتر، بل هو أبو الشعر، وأستاذه بلا منازع؛ لكن أردت أن أخبرك بعثرة العظماء، وسقطة العباقرة، ونقص العمل البشري. وإلا لو ذهبنا نمعن النظر في لوحات أبي الطيب الجميلة، ورسومه الشاعرية الساحرة، لأخذنا العجب وأسرنا الإبداع. وله باع طويل في الفنون الشعرية، فهو إذا ذهب إلى الغزل أشجى، وإذا ذكر الديار أبكى، وإذا مدح كفى، وإذاوصف شفى، وإذا هجا كوى، وكل هذا دليل على تمكنه، وقوة ذاكرته، وخصوبة خياله، وجودة خاطره، وسيولة ذهنه، وصفاء قريحته.

وتعال إلى شيء من رثائه وعويله وصراخه من الدنيا، وتفجعه من الفراق، وذكره للموت، واسمع ماذا يقول هذا الأعجوبة:

يقول في رثائه لشجاع:

الحزن يقلق والتجمل يردع   والدمع بينهما عصي طيعُ

فيا له من مطلع عجيب، ومن بداية مؤثرة ساطعة، تحرك الشجون، وتستمطر العيون.

ويقول باكياً شاكياً من الدنيا:

لحا الله ذي الدنيا مناخاً لراكب   فكل بعيد الهم فيها معذبُ

فانظر إلى هذا الإيقاع المؤثر، والنشيد الصادق، والحكمة الثاقبة، مع سهولة الجمل، وحلاوة اللفظ.

وله قصيدة زهدية رثائية حزينة من أبياتها:

أبنِي أَبِينا نحن أهل منازل   أبداً غُراب البين فيها ينعقُ

نبكي على الدنيا وما من معشر   جمعتهمُ الدنيا فلم يتفرقوا

أين الأكاسرة الجبابرةُ الأُولى   كنزوا الكنوز فما بقينَ ولا بقوا

من كل مَنْ ضاق الفضاءُ بجيشه   حتى ثوى فحواهُ لحدٌ ضيِّقُ

فهو هنا متمكن مما يقول، مؤثر بشاعريته، متفاعل بعواطفه، وقد يوجد من يتفوق عليه في بعض القصائد، أو في فن من فنون الشعر، لكن في جملة شعره، وفي مجموع قصائده هو الأول، فمثلاً أبو الحسن الأنباري في قصيدته:

علـو فـي الحـياة وفـي الممــات بحـــق أنت إحـدى المعجـزاتِ

أقوى وأعلى من المتنبئ في مراثيه.

وابن عبدون الأندلسي في مرثيته الشهيرة التي فيها:

وليتها إذ فدت عمراً بخارجة فدت علياً بمن شاءت من البشـــرِ

هذه المرثية عندي أجمل من مراثي المتنبئ.

وكذلك قصيدة عدي بن زيد:

أيهـا الشـامت المعيـر بالدهـر أأنت المبـــــرأ الموفـــورُ

لكن هؤلاء الشعراء لهم في الإبداع القصيدة والقصيدتان، لكنَّ أبا الطيب له مائة قصيدة أو أكثر كلها بديعة جميلة رائعة.

فهو عندي كطالب عبقري يدرس عشرين مادة، يحصل في كل مادة على خمس وتسعين درجة في المائة، وكل زميل من زملائه لم ينجح إلا في مادة واحدة، حصل على الدرجة نفسها أو مائة في المائة، ورسب في المواد الأخرى جميعاً.

فالمتنبئ مُجيد في المدح، آية في الثناء على ممدوحه، حتى تشعر بأريحية وأنت تطالع مديحه، وتتمنى أنك كنت الممدوح لجودة ما أمطر به هذا الشاعر الأعجوبة.

يقول لسيف الدولة:

وقفتَ وما في الموت شكٌّ لواقفٍ كأنك في جفن الردى وهو نائمُ

تمر بك الأبطال كلمى هزيمةً ووجهُك وضاحٌ وثغرك باسمُ

فلله دره أي مديح هذا؟! وأي ثناء هذا؟! وأي شعرهذا ؟!.

ويقول في كافور:

عدوك مذموم بكل لسان ولو كان من أعدائك القمرانِ

ولله سرٌّ في علاك وإنما كلام العدى ضرب من الهذيانِ

إلى أن يقول:

قضى اللهُ يا كافورُ أنك أولٌ وليس بقاضٍ أن يُرى لك ثانِ

فانظر إلى هذا المديح الذي يسلب العقول، ويخلب القلوب، وليس تفوق المتنبئ في المدح حتى يفضل على غيره، بل في مجموع فنونه وكل قصائده مجتمعة كما أسلفت، وإلا فقد حفظ التاريخ مدائح قد تفوق في مفردها مديح المتنبئ، فمثلاً قول زهير في هرم:

تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله

غاية في المديح .

وقول علي بن جبلة العكّوك في أبي دلف:

إنما الدنيا أبو دلف ... بين باديةٍ ومحتضرة

فإذا ولّى أبو دلف ... ولت الدنيا على أثره

قمة في الإبداع والثناء الجميل.

وقول أبي تمام في عبدالله بن طاهر:

يقول في قومَسٍ صحبي وقد أخذت ... منا السُرى وخُطا المهريّةِ القودِ

أمطلع الشمسِ تنوي أن تؤمَّ بنا ... فقلت كلا ولكنْ مَطلِعَ الجودِ

وقد أخذ ذلك خلسة من مسلم بن الوليد إذ يقول:

يقول صحبي وقد جدّوا على عجل ... والخيل تستن بالركبان في اللجمِ

أمطلع الشمس تبغي أن تؤم بنا ... فقلت كلا ولكن مطلع الكرمِ

فمسلم بن الوليد البادي، وأبو تمام هو العادي، ولكن هذا من أجمل المدح وأرقه وأجزله، والشاهد، أنه قد يتفوق شاعر من الشعراء في جزئية على أبي الطيب، ولكن كلية الشعر الجميل تبقى لأبي الطيب، وله دولة القافية، وهو ملكها المتربع على عرشها.

نفسية أبي الطيب في شعره

أصدق ما يعبر عن المرء لسانه، والشاهد على الإنسان كلامه، وأعظم بينة عليه اعترافه، وأبو الطيب يقدم لنا أسرار نفسه، وخبايا جوانحه في شعره، ويمكنك أخذ صورة كاملة لأبي الطيب من شعره، وسوف أضرب أمثلة من قريضه لنفهم هذا الشاعر أكثر. يقول:

فثِبْ واثقاً بالله وثبةَ ماجدٍ يرى الموتَ في الهيجا جنى النحل في الفم

فالرجل طموح سبوق، مغرم بالمعالي، عاشق للمجد، مخاطر في سبيل مراده، وليس بليداً قاعداً مهزوماً، كبعض الشعراء الذين ألقو بأيديهم إلى التهلكة، يقول:

لولا مفارقة الأحباب ما وجدتْ لها المنايا إلى أرواحنا سبلا

فهو رهيف الإحساس، حي العاطفة، جياش الفؤاد، وليس ثخين الطبع، بارد المشاعر، ميت الروح.

يقول:

عِشْ عزيزاً أو مُت وأنت كريمٌ بين طعن القنا وخفق البنودِ

فرؤوسُ الرماحِ أذهبُ للغيـ ـظ وأشفى لغلٍّ صدرِ الحَقودِ

لا كما قد حَييتَ غيرَ حميدٍ وإذا مُتَّ مُتَّ غيرَ فقيدِ

فاطلب العز في لظى ودعِ الذّ ل ولو كان في جنان الخلودِ

فهذه فلسفته في الحياة، وهي الكفاح من أجل العزة، ورفض الذل، وهجر الخنوع والاستخذاء، ولو لقي الإنسان في سبيل ذلك الألاقيّ، ولو نهشته الرماح، وعضته شفرات السيوف، فهو يرى أن الحياة هي الجهاد والبذل والتضحية، والمشقة هي جنة الدنيا، وبستانَ العمر الوارف، وأن حياة الذل والقهر والكبت جهنم العيش، ولظى الدنيا، فلماذا لا يغامر الإنسان ويركب المصاعب؟! ويستهين بالحوادث؟! حتى يصل إلى مراده ومبتغاه. ويقول:

من كل أبيضَ وضَّاحٍ عمامَتُهُ ... كأنما اشتملت نوراً على قبسِ

دانٍ بعيدٍ محبٍ مبغضٍ بهجٍ ... أغرَّ حُلوٍ مُمرٍ لينٍ شرسِ

ندٍ أبِيٍّ غرٍ وافٍ أخي ثقةٍ ... جعدٍ سَرِيٍ نهٍ نَدبٍ رضاً ندُسِ

وقبل أن أوضح الحديث عن نفسيته من خلال هذه المقطوعات، أذكرك بقوة لغته، وتمكنه من المفردات، واقتداره على الصياغة، وسهولة اللفظ في لسانه، وانسياب الجمل معه، وهذا هو الشاعر الذي تطاوعه اللغة، ويسعفه الكلام، وتمطره الحروف بوابل من التراكيب والصور، وتراه في المقطوعة السابقة يدعو إلى صفات متضادة، لكنها كمال في موطنها، وجمال في مجموعها، فهو يريد إنساناً دانياً من أحبابه، مُبْغِضًا لأعدائه، حسن الطلعة لأصدقائه، جميل المحيا لمعارفه، حسن السجايا لمن يحبه، ولكنه مر الطعم لمن يعاديه، وشرس الطباع لمن يخالفه، كريم سخي، صاحب وفاء، شريف نفس، عاقل يفهم عنك، ويحيط بمن حوله، ويدرك مراد من يحدثه، وهذه صورة الرجل المثالي المقبول عند أبي الطيب فهو مغرم بخصال الحمد، محب لمعاني النبل في

الرجال، أما عدوه فهو البخيل الجافي، ساقط الهمة الجبان البليد، ولكن هذا الشاعر المصقع، اختزل اللفظ، وأوجز في الكلام، وعصر الفضفضة الوصفية في اختصار لطيف شريف.

يقول:

أرقٌ علــى أرقٍ ومثلــي يــأرقُ   وجــوًى يزيد وعبــرةٌ تترقــرقُ

فانظر إلى هذه القلقة المطربة المعجبة التي يتراقص معها البدوي مع تمكن اللفظ من موضعه، فليس قلقاً في مكانه، ثم انظر لجودة المعنى؛ فإنها ذِكْرُ حال المحب في أرقه الدائم، واحتراق حشاياه بنار الوجد، وغزارة دمعته مع جمال المطلع، واختيار المفردة، فهي تناسب الحب والوجد والغرام، ويختم إحدى قصائده ببيت ذائع في المدح فيقول:

ألا كل سمح غيرك اليوم باطل   وكل مديــح في ســواك مضيع

فانظر إلى حسن الختام، وإغلاق دائرة القصيدة، مع روح الحكمة وجزالة اللفظ، فكأن المعاني معروضة أمامه يختار منها ما يشاء، ويترك ما يشاء، ثم انظر إلى حسن التقسيم في البيت، فكل نصف تام كامل، لا يحتاج إلى النصف الآخر، ثم إن كلمة سمح، وباطل، ومديح، ومضيع، منتقاة فصيحة وليست ركيكة متبذلة.

ويقول:

ومن يبغ ما أبغي من المجد والعلى   تَســاوى المحايي عنده والمقَاتِلُ

فهذه حكمة شاردة، وبيت فريد، فنصفه الأول توطئة، والنصف الثاني نص مقصود، أو مقدمة ونتيجة، ثم إن البيت فيه من علو الهمة، وجلالة المقصود، وارتفاع القدر، ما يدل على الطموح، وشرف النفس، وهذا ظاهر في شعره، وفي البيت استقرار الكلمة وكأنها خلقت لهذا الموضع فلو قلت للناس: (تساوى المحايي عنده) ثم سكت لأكملوا وقالوا: (المقَاتِلُ).

ويقول:

ليس التعلل بالآمال من أربي ولا القناعة بالإقلال من شيمي

فإنه قابل وزاوج وضاد، فقابل بين التعلل والقناعة، ويجمع بينهما معنى الاكتفاء، وقابل بين الآمال والإقلال، وبين قوله: (أربي وشيمي) فأتى البيت تماماً على الذي أحسن، وأبو الطيب يفعل هذا وأكثر، وهو صاحب البيت البهيج الذائع الشايع، إذ يقول:

أزورهمُ وسواد الليل يشفعُ لي وأنثني وبياضُ الصبح يغري بي

فقابل بين أربعة بأربعة: أزورهم مع وأنثني، وسواد الليل مع بياض الصبح، ويشفع مع يغري، ولي مع بي، وهذه هي الموهبة الجياشة للقلب الحي والعقل الذكي، ويقول:

رِدي حياضَ الرّدى يا نفسُ واتْركي حياضَ خوفِ الردى للشّاءِ والنَّعَمِ

فهي همته المتوثبة، ونفسه التواقة، يشرحها لنا في قوالب من السحر، ويقدمها لنا في باقات من الشعر.

ومن خصائص هذا الشاعر أنه فريد في تركيب معانيه، وقد يسبقه الشعراء إلى المعنى، لكنه يفوقهم في حسن العرض، وجمال التركيب وبراعة الإخراج، حتى تجزم أنه لم يسبقه أحد لهذا المعنى، وهذا الذي حير النقاد في شعره، وأوقفهم مذهولين أمام قصائده.

يقول في ممدوحه وقد دخل مدينة حمص:

دخلتَها وشعاعُ الشمسِ مُتَّقِدٌ ... ونورُ وجهك بين الخلق باهرُهُ

في فيلق من حديد لو قذفتَ به ... صرفَ الزمان لما دارت دوائرُهُ

فهو مهما صعبت القافية مَرِنٌ في جذبها، متمرس في التعامل معها، حاذق في مطارحتها، بعيد عن معاضلة الكلام، وزيادة الضمائر وحروف الجر المقحمة إقحاماً كما يفعله ضعاف الشعراء، فلا حشو في شعره، وأعد النظر في البيتين السابقين، فقوله: (دخلتها وشعاع الشمس متقد) تجد أن كل كلمة احتلت مكانها الطبيعي دون إعادة ضمير، أو زيادة حرف، أو افتعال حشو لا داعي له. وانظر كيف أنهى نصف البيت، ليصبح كاملاً تاماً، غير محتاج إلى كلام آخر، وهذه هي البلاغة بعينها.

ويقول في قصيدة أخرى:

جرى حبُها مجرى دمي في مفاصلي ... فأصبح لي عن كل شُغْلٍ بها شغلُ

كأن رقيباً منك سدَّ مسامعي ... عن العذل حتى ليس يدخلها العذلُ

فأنت تشاهد قصيدة للمعاني في أي مذهب سلك، فإن قصد الغزل أتحف وشنف، وشدّك بصور من عالم الحب، ودنيا الهجر والوصال، وديوان الغرام والعشق، وإن مدح خلع على ممدوحه مطارف من أبهى الشعر قبله ولكنه مبتكر، سيّال القريحة، متجدد العطاء، ولو أمعنت النظر في البيتين السابقين لوجدت المعنى جديداً، ولو أن بعض أجزائه سُبِقَ إليه، لكن التركيبة الكاملة، والكلية الواحدة للمعنى مبتكرة من هذا الشاعر المتمكن.

شهداء على تفرد هذا الشاعر

أدلى أرباب البيان وأساطين اللغة وجهابذة الشعر بشهادتهم عن هذا الشاعر الفذ، معترفين بسموه وعبقريته وتفرده، يقول الواحدي إمام اللغة والتفسير، وأحسن من شرح ديوان المتنبئ: (إن الناس منذ عصر قديم ولّوا جميع الأشعار صفحة الإعراض، مقتصرين منها على شعر أبي الطيب، ناسين عما يُروى لسواه).

وحسبك بهذه الشهادة من أستاذ باقعة في معرفة الشعر، آية في تذوق البيان، ولو ذهبت تفكر في مدلول شهادته لوجدتها صادقة، فإن شعر هذا الرجل صار سمر الأدباء، ونشيد المسافرين، وسلوة الناس في مجالسهم ومذاكرتهم، وما رأيت عالماً جهبذاً، ولا أديباً لامعاً بعد المتنبئ، إلا وقد استشهد بشعره وردد أبياته.

وقال العكبري: (ولم يسمع بديوان شعر في الجاهلية ولا في الإسلام شرح مثل هذه الشروح الكثيرة، ولا تدوول في ألسنة الأدب من نظم ونثر أكثر من شعر المتنبئ). وهذا كلام يشهد له الواقع، فقد غرقت أقلام الباحثين في دراسة شعره، واستخراج درر بيانه، والغوص في أعماق نتاجه، وهذا هو الشيوع والذيوع.

ويقول أبو بكر الخوارزمي: (إن المتنبئ أمير شعر العصر، ولو لم يكن له إلا قوله:

أرى كُلَّنا يبغي الحياةَ لنفسهِ حريصاً عليها مستهاماً بها صبَّا

فحبُّ الجبانِ النفسَ أورده التقى وحب الشجاع النفس أورده الحربا

لكفاه).

وقد وصفه المستشرق «غوث» بشاعر العرب الكبير، ويقول كاتب العربية مصطفى صادق الرافعي في مجلة المقتطف: (إن هذا المتنبئ لا يفرغ ولا ينتهي، لأن الإعجاب بشعره لا ينتهي ولا يفرغ، وقد كان نفساً عظيمة خلقها الله كما أراد، وخلق لها مادتها العظيمة على غير ما أرادت، فكأنما جعلها بذلك زمناً يمتد في الزمن، وكان الرجل مطوياً على سر ألقى الغموض فيه من أول تاريخه، وهو سر نفسه، وسر شعره، وسر قوته).

وقال الربعي: (كان يقرأ ديوان المتنبئ على النحاة والأدباء حرفاً حرفاً، ويروونه عن بعضهم، وقد ضُبِط الديوان على المتنبئ، وصحح عليه، وما ذاك إلا لعظم هذا الشعر وتفرده).

وقال ابن العديم في بغية الطلب: (وكان أبو الطيب شاعراً مشهوراً مذكوراً محظوظاً من الملوك والكبراء الذين عاصرهم، والجيّد من شعره لا يجارى فيه ولا يلحق).

وترجم له ابن عساكر المؤرخ المشهور، ومجد شعره، وأثنى على حكمه. وشرح ديوانه ابن جني بكتاب سماه «الفسر» وكتاب «اللامع العزيزي»، و«معجز أحمد» لأبي العلاء المعري، غاص فيه على درر المتنبئ، وشرح ديوانه الواحدي بشرح مجيد فريد في بابه، هو أمتع وأنفع الشروح.

وشرح ديوانه التبريزي في كتاب «الموضح» ودرس شعره أستاذ البلاغة عبدالقاهر الجرجاني، وتكلم عن شعره أبو منصور السمعاني، والعالم الإفليلي، والأديب أبو الحجاج الأعلم، وعلق على شعره عبدالرحمن الأنباري. وكتب

الحسن بن محمد بن وكيع كتاب «المنصف» تناول ما للمتنبئ وما عليه، ومثله وأحسن منه كتاب «الوساطة» للقاضي علي الجرجاني، وشرح ديوانه أبو البقاء العكبري وكتب عنه أبواليمن زيد بن الحسن الكندي النحوي المشهور، وكذلك عبدالواحد بن محمد بن علي بن زكريا، ومحمد بن علي الهراسي الكافي، وأبوالحسن محمد بن عبدالله الدلفي، وكمال الدين الواسطي، وغيرهم كثير. وعقب على شعره أساطين البيان ورواد اللغة، كأبي بكر الخوارزمي، وعبدالرحمن بن دوست النيسابوري، وأبي الفضل العروضي، وابن فورجه في كتاب «التجني على ابن جني»، وكتاب «الفتح على أبي الفتح»، ومعاني أبياته لابن جني، والتنبيه للرَّبَعي. وكتاب «قصائد المتنبئ» للأعلم الشنتمري، وكتاب «نزهة الأديب في سرقات المتنبي من حبيب» لحسنون المصري، وكتاب «الانتصار المنبي عن شعر المتنبئ» لأبي الحسن المغربي، و«التنبيه المنبي على رذائل المتنبئ» لأحمد المغربي، وبقية «الانتصار المكثر من الاختصار» للمغربي أيضاً، و«الرسالة الحاتمية» لأبي الحسن الحاتمي، وكتاب «جبهة الأدب» للحاتمي أيضاً، وكتاب «المآخذ الكندية من المعاني الطائية»، و«الاستدراك على ابن الدهان» لابن الأثير الجزري، وكتاب «الإبانة» للصاحب العميدي.

وقال ياقوت الحموي: (ولم نسمع بديوان شعري في الجاهلية ولا في الإسلام شرح هكذا بهذه الشروح الكثيرة سوى هذا الديوان، ولا بتداول شعر في أمثال أو طُرف أو غرائب على ألسنة الأدباء في نظم أو نثر أكثر من شعر المتنبئ).

وترجم له المقريزي في كتابه «المقفى» ترجمة طويلة، وأورد من روائعه شيئاً كثيراً، وترجم له الذهبي مؤرخ الإسلام، وأشاد بشعره، وذكر سيرته ابن كثير ونوه

بنبوغه، وأما المفسرون بعد المتنبئ فنشروا شعره في تفاسيرهم، ويدعوا في الاستشهاد بأدبه، وأكثَرَ أهل اللغة والأدب من دراسة شعره ما بين مادح وقادح، وكتب عنه في كل مجلة أدبية، وتحدث عنه في كل مهرجان شعري، بل خصص له مهرجان كامل باسمه، وعقدت له ندوات خاصة، وأقيمت أمسيات لأبي الطيب وحده، وأعدت دراسات عنه وعن شعره، وقدمت رسائل في الماجستير والدكتوراه عن هذا الشاعر العظيم، وضَمَّنَ الشعراءُ بعده شعره في قصائدهم، واكتسبوا منه، ومدحوه بقصائد كاملة، واستشهد الخطباء بأبياته على المنابر، وفي المحافل، وقُرئ ديوانه في مجالس العلماء، ومنتديات الأدباء، وذيَّل الحكماء رسائلهم بشعره، وصَدَّر الوزراء والأمراء والكتَّاب خطاباتهم بأبياته، وترجم شعره إلى اللغات الحية، وأقيمت مسرحيات باسم المتنبئ، واختصر ديوانه، ومنهم من جمع حكمه، ومنهم من شرح شواهده، ومنهم من أفرد روائعه، ومنهم من درس جانباً من جوانب شاعريته، ومنهم من رد عليه وعارضه، ومنهم من طارحه وجاراه، ومنهم من ألف في معاناته، ومنهم من فضله على كل شاعر، ومنهم من فضل كل شاعر عليه!!

وشرح وشكل شعره ابن سيده على بن إسماعيل وجمع معظم شروح شعره عبدالرحمن البرقوقي، وما له وما عليه، وشرح ديوانه بالفارسية المحببي محمد أمين بن فضل الله بعنوان «محبي شرح ديوان متنبي» وطبع بالهند وشرحه مولانا عبدالله العبيدي بعنوان «تصويب البيان في شرح الديوان» وهو شرح بالأوردية، وهجم على شعره الصاحب بن عباد بعداوة مكشوفة في كتابه «الكشف عن مساوئ المتنبئ» وأغار على شعره ابن وكيع بمؤلف سماه «المنصف في نقد الشعر وبيان سرقات المتنبئ ومشكل شعره» وهو أبعد ما يكون عن الإنصاف،

وكتب الصاحب بن عباد رسالة ثانية بعنوان «الأمثال السائرة مِن شعر أبي الطيب المتنبئ» فيها اعتدال وإنصاف. وترجم للمتنبئ الأديب البارع أبو منصور الثعالبي في يتيمة الدهر ترجمة وافية كافية شافية ضافية، وألف أبو القاسم الأصبهاني كتاب «الواضح في مشكلات شعر المتنبئ» ونقل عنه عبدالقادر البغدادي في «خزانة الأدب»، وفيه عداوة وتحايل على المتنبئ.

وقد جمع ما تفرق من أخبار المتنبئ عبدالله الجبوري في كتاب «أبو الطيب المتنبئ في آثار الدارسين»، وألف عنه محمود محمد شاكر كتاباً ذائعاً شائقاً عجباً بعنوان «المتنبئ رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» وهو من أجمل وأكمل وأجل الكتب في بابه . وكتب عنه عبدالوهاب عزام كتاب «ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام»، وشرح ديوانه في ألمانيا المحدث الكبير تقي الدين الهلالي.

وكتب عنه طه حسين كتاب «مع المتنبئ»، وبحث في شعره جمع من الأدباء والمؤلفين، كجاسم محسن عبود ومارون عبود وشوقي ضيف ومحمد عبدالرحمن شعيب ومصطفى الشكعة وعصام السيوفي واليازجي وغيرهم.

وغالب الشعراء المعاصرين مدحوه بقصائد أو أبيات ودبَّجوا قصائدهم ببعض جمله وأبياته وحكمه.

وكتب عنه فريق من المستشرقين وأدباء الغرب.

وقال كوركيس عواد: (كتب عن المتنبئ دراسات فرنسية وإنجليزية وإسبانية وألمانية وإيطالية ولاتينية وروسية وبولندية).

وقد درس ديوان المتنبئ المستشرق بلاشير في أطروحته «أبو الطيب المتنبئ دراسة في التاريخ الأدبي» ترجم إبراهيم الكيلاني جزءاً منها وترجم الجزء الآخر أحمد أحمد بدوي.

ودرس المتنبئ عمدة المستشرقين سلفستر دو ساسي وأولى شعره عناية فائقة وأهم مؤلفاته عن هذا الموضوع «المنتقيات العربية» وجمع دراساته في كتاب سماه «الأنيس المفيد للطالب المستفيد وجامع الشذور من منظوم ومنثور».

وكتب عنه المستشرق دولا كرانج كتاباً بعنوان «نخب الأزهار في منتخبات الأشعار».

وتحدث عن أبي الطيب المستشرق شلومبرجر وأبرز القيمة التاريخية لشعر المتنبئ. أما ماسينيون فقد عرض في كتابه «عناصر إسماعيلية في شعر المتنبئ» وقال: «بأن المتنبئ باطني إسماعيلي» وقد جانب في ذلك الصواب، وركب الصعاب، وأخطأ في الجواب، ومن أكثر المستشرقين عناية بالمتنبئ بلاشير لأنه درس حياته وشعره ونذر شطراً من عمره لبحث أدب هذا الشاعر.

وكان أندريه ميكال في كتابه «المتنبئ شاعر عربي: بعض التأملات» من أكثرهم دقة وتحريراًوضبطاً، ولم يقلد غيره في التعصب والتحامل.وكتب عن أبي الطيب الكاتب الألماني رايسكه بحثاً بعنوان «مختارات من الشعر العربي، غزليات ومراث من ديوان المتنبئ».

وكتب هامر النمساوي كتاب «المتنبئ شاعر العربية الأكبر». وقد ترجم ديوانه كاملاً إلى الألمانية.

ومن أجمل من درس آراء المستشرقين ودراساتهم عن المتنبئ الدكتور حسن الإمراني في كتابه «المتنبئ في دراسات المستشرقين الفرنسيين».

وما زالت الدراسات والبحوث، والندوات، والمحاضرات، تكتب وتقام وتعقد في شعر هذا الرجل وأدبه، ولم أجد شاعراً عند العرب قديماً وحديثاً وجد حظوة عند الناس كما وجد هذا الشاعر، وهو عند العرب في الشعر كشكسبير عند الإنجليز، ويمكن جمع مكتبة كاملة فيما قيل فيه من شعر ونثر وشرح ومقالات وبحوث وكأنه يقصد نفسه بقوله:

إذا تغلغل فكر المرء في طرفٍ   من مجده غرقت فيه خواطرُهُ

أو كأنه المقصود بقوله:

هو الجَدُّ حتى تفضُل العينُ أختَها   وحتى يصير اليومُ لليومِ سيّدا

غـــرره ودرره

ذَل مـن يَغبـِطُ الذَّليـلَ بعيــش ... رب عيـشٍ أخـفُّ منـه الحمَـامُ

المعنى: من راقته حياة الذليل، وأعجبه ما هو عليه من سوء الحال فتمنى أن يكون نظيره فليس بعاقل؛ لأنه رضي لنفسه منزلة الهوان. فالذليل لا يغبط على عيشه وإنما يغبط العزيز، والموت أيسر على النفس الكريمة من الحياة في الذل.

كُـلُّ حِلـم أتـى بغيـر اقْتِـدَارٍ ... حُجَّــةٌ لاجِـئٌ إليهــا اللِّئَــامُ

المعنى: الحلم يكون عن قدرة، فإذا رأيت العاجـز قد اعتصم بالحلم، فذلك برهان لؤمه، فهو إنما ينفي عجزه عن الانتقام بحجة أنه حليم وليس بالحلم، حتى إذا سنحت فرصة نقض الحلم ووثب على الخصم وانتقم لنفسه.

مَـن يَهُـن يَسْهُـل الهَـوانُ عليْـهِ ... مـا لِجُـــرح بميت إيــلاَمُ

المعنى: الإنسان إذا كان هيناً في نفسه بأن لم يعرف لها حقها من العزة، سهل عليه احتمال الهوان فلا يتألم منه، كالميت لا يتوجع من الجرح الذي كان يتوجع منه وهو حيٌّ لفقدان الإحساس.

وفي اختيار المتنبئ التشبيه بالميت إشارة إلى أن المهين حياته موت، ووجوده عدم، فما أطيب الحياة مع الكرامة، وما أخبثها مع الهوان.

أفاضلُ الناسِ أعراضٌ لذا الزمن ... يخلو من الهمِّ أخلاَهُم من الفِطَنِ

المعنى : الفُضلاء من الناس هدف للزمان، يرميهم بنازلاته وصروفه، ويقصدهم بحدثانه ومحنه، فلا يزالون في أحزان تترى، وأوصاب تتكرر من جراء تفكيرهم في عواقب الأمور، واستنفاد وسعهم في مهام الأعمال، وإنما يخلو من الهم من كان خلواً من العقل، غفلاً من الذكاء.

وإذا أتَتْكَ مذمَّتي من ناقِصٍ فَهِي الشَّهادةُ لي بأنّي كَامِلُ

المعنى : هجو الناقص إياي برهان فضلي ودليل كمالي، فعادة الناقص أن يطري نظراءه الناقصين وأعمالهم، ويذم أضداده أولي الفضل وأمورهم، فالناس أعداء ما جهلوه، وإنما يعرف الفضل من الناس ذوُوه.

ومن يُنفق الساعات في جَمْعِ مالِهِ مخافةَ فَقرٍ فالذي فعل الفقرُ

المعنى : من أنفد ساعات العمر في جمع المال خشية إملاق، كان ذلك الفعل هو الإملاق بعينه، فإنك إذا أفنيت دهرك في جمع المال ولم تنفقه وتتمتع به، فقد مضى عمرك في الفقر.

ومِن نَكَدِ الدنيا على الحُر أن يَرى عَدواً لَه ما مِن صَداَقَتِه بُدُّ

المعنى : من عُسر الحياة على كريم النفس؛ أن يحتاج فيها إلى مصانعة عدوه ومداراته؛ ليأمن شره، حيث لا يجد مفراً من إظهار المصادقة والمداراة دفعاً لغائلته.

وأُكبر نفسِي عن جزاءٍ بغيبةٍ وكُلُّ اغتيابٍ جُهدُ مَنْ ما له جُهدُ

المعنى : أرى نفسى أكبر وأرفع من أن أكافئ العدو على إساءته بالاغتياب،

فإن الاغتياب طاقة من لا طاقة له بمحاربة عدوه، فإنما يغتاب الناس العاجز الذي لا يستطيع أن يثأر بنفسه، ولا يقدر أن يداوي بالشر من الشر.

من الحلمِ أن تستعمِلَ الجهلَ دُونه إذا اتَّسعت في الحلْمِ طُرْقُ المظالِمِ

المعنى: إذا أفضى حلمك إلى طمع الناس فيك وظلمهم إياك ورأيت أنه قد اتسعت عليك أبواب المطامع، وتشعبت طرق المظالم، فمن الحلم أن تلجأ إلى الشدة حتى تكبح جماح الطامعين، وتفل «تكسر» شَباة «حدّة» الظالمين.

إذا لم تكنْ نفسُ النَّسيب كأصْلِه فماذا الذي تُغْني كرام المناصب

المعنى: إذا كان المرء شريف الأصل دنيء النفس، فلا يفيده شرف أصله مع دناءة نفسه، فالمرء بفضيلته لا بفصيلته، ومن هذا يؤخذ أنه لا ينبغي أن يعتمد الإنسان في فخره وشرفه على سوى نفسه.

والهَمُّ يخْتَرِمُ الجسيمَ نحافةً ويشيبُ ناصيةَ الصَّبي ويُهرِمِ

المعنى: الحزن يفتك بالنفوس فتكاً ذريعاً، ويحطم الأبدان تحطيماً، ويذهب بجسامة العظيم الجسم ويوقعه في الهزال، وإذا تمكن من الصبي أشابه، قبل إبان المشيب، ويبدل صباه هرماً، وقوته ضعفاً، وصحته سقماً، وكلّ ذلك ناشئ عن شدة الاضطراب من الحادثات، والتأثر بالمرجفات.

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

المعنى: العالم البصير بعواقب الأمور شقيٌّ في الحياة وإن طاب عيشه، وتدفقت نعمته؛ لأنه دائم التفكير كثير الاشتغال بمهام الأعمال.

أما الجاهل، فهو ناعم البال، مُطمئن القلب لغفلته وجهله بتحوّل الأحوال وتقلّب الحوادث، وإن كان سيئ الحال رديء العيش.

لا يسلَمُ الشرفُ الرفيعُ من الأذى حتى يُراقَ على جوانبه الدَّمُ

المعنى: العليّ المنزلة في قومه محسود لا يزال يُرمى بالمكاره، فلا يبرأ شرفه من الأذى حتى يسيل الدم على جوانبه، إذ قد يبعث الاحتفاظ بالشرف على سفك الدماء، وإزهاق الأرواح.

والظلمُ من شِيَمَ النفوس فإن تَجِدْ ذا عِفــةٍ فَلعلَّــةٍ لا يظلِــمُ

المعنى: الظلم من طبائع النفوس؛ لأنها مكتنفة بالمطامع، محفوفة بالشهوات، فكانت مجبولة على الظلم لسد مطامعها، وقضاء شهواتها، فالإنسان ظالم بالطبع، فإذا وجدت إنساناً لا يظلم فذلك لعِلَّةٍ دينية أو سياسية، كخوف من ربه، أو من حكومته.

ومن البلية عَذْلُ من لا يرعوي عن جهله وخطاب من لا يفهمُ

المعنى: من البلية على الحُرّ أن يلوم من أسرف في شهواته، وأفرط في لذّاته، واستولى على حواسه شيطان الغفلة، فلا يجد إلى الانتصاح سبيلاً، ومن البلية كذلك على الحر أن يخاطب من لا عقل له فلا يفهم ما يقول، فهو والجماد سيان.

والذلُ يظهِرُ في الذليلِ مودةً وأودُّ منــه لِمَنْ يَــودُّ الأرقــمُ

المعنى: الحاجة ذلّ تكلف الإنسان ما ليس من طبعه، فقد يظهر الإنسان لمن يبغضه المودّة لذله منه وخوفه، فلا تغرنّك ذلة الذليل، يظهر لك المودة، ويبطن لك

البغض، فهو شرّ من الحية الخبيثة، التي تُظهر لمن لامسها عدم الأذى بلين الملمس و(عند التقلب في أنيابها العطب).

ومن العداوة ما ينالك نفعُه ومن الصداقة ما يضر ويؤلمُ

المعنى: يقول: رب عداوة جلبت إليك نفعاً، أقله التحفظ من وقوع المهالك، ورب صداقة أعقبت لك ضراً وألماً، أورثهما عدم التوقي ممن تصادقه، ويدخل في هذا المعنى المثل السائر(عدو عاقل خير من صديق جاهل).

يرى الجبناءُ أن العجزَ عقْلٌ وتلك خديعةُ الطَّبْع اللَّئيمِ

المعنى: أنَّ الرجل الجبان الذي يهاب ركوب الغمار في سبيل درك المعالى وبلوغ الأماني؛ يرى أن عجزه عن ذلك من العقل والحكمة، وليست الحقيقة كما ظن، وإنما هي خدعة يخدع بها نفسه كل رجل خامل الذكر، ساقط القدر، ليطري عجزه، ويزين خموله.

وكلُ شجاعةٍ في المرء تغنيْ ولا مثلَ الشجاعةِ في الحكيمِ

المعنى: الإقدام يغني، والجراءة تجدي في كل حال، فكل شجاعة نافعة للمرء، إلا أن نفعها في الحكيم أتم وأكمل، وذلك أن الشجاعة ربما كانت طريقاً لحتفه وأودت بروحه فيذهب شهيد التهور، وقتيل ثأر شجاعته الخرقاء.

وكمْ مِنْ عائبٍ قولاً صحيحاً وآفتُه من الفَهْمِ السقيمِ

المعنى: إذا مرض فهم المرء ضل في الرأي، وأخطأ في الحكم، فيرى بفهمه السقيم الكذب صدقاً، والخطأ صواباً، ويعيب ما لا يُعاب.

والأسى قبل فُرقَةِ الروحِ عجزٌ والأسى لا يكونُ بعد الفراقِ

المعنى: لايحسن بك أن تحزن للموت قبل وقوعه، لأن ذلك ينغص عليك العيش؛ ولأنك عاجز فلا تستطيع أن تدرأ عن نفسك الموت بحزنك، وإذا وقع الموت فلا عليك، إذ لا علم لك بوقوعه حتى تحزن، وفي هذا البيت حث على الشجاعة، وتحذير من الجبن، وتهوين للموت؛ لئلا يخافه الإنسان فيتحاشى الإقدام، وينثني عن اقتحام صعاب الأمور، وفي هذا المعنى يقول المتنبئ:

وإذا لم يكن من الموتِ بُدٌّ فمن العجزِ أن تكون جبانا

*****

والغنى في يد اللئيم قبيحٌ قدرَ قبحِ الكريمِ في الإملاقِ

المعنى: قبيح بالأيام أن نرى فيها اللئيم غنياً والكريم فقيراً، وذلك لأنَّ الغنى في يد اللئيم سلاح يُحارب به الكرام، ويساعده على تنفيذ لؤمه. والكريم إذا أملق كان مثله كمثل المنهل العذب إذا نضب ماؤه، أو البدر في الليلة الظلماء إذا احتجب ضياؤه.

وإذا كانت النفوسُ كباراً تعبت في مرادها الأجسامُ

المعنى: إذا قويت الهمة، وكبرت النفس تعب الجسم، في غاياتها الكثيرة، ومطامعها المختلفة، والبيت من قصيدة يمدح بها سيف الدولة، وقد عزم على الرحيل عن أنطاكية.

ولو كان النساءُ كمن فقدنا لفضلت النساءُ على الرجالِ

المعنى: لو أن نساء العالم بلغن من الكمال والعفاف ما بلغت هذه المفقودة؛ لتفوقن على الرجال في الفضل، إذ هي اليتيمة العصماء في عقد الفضيلة، والبيت من قصيدة يرثي بها والدة سيف الدولة.

وما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ ولا التذكير فخر للهلالِ

المعنى: لا يكون تأنيث المفقودة مدعاة إلى الحط من قيمتها، أو ذريعة على التقليل من كرامتها، فالشمس مؤنثة، وقد فضلت القمر في الضياء، فنوره مستمد من نورها، وشأوه في الفضل دون شأوها، تلك وسيلة محسوسة تذرع بها المتنبئ إلى تفضيل المرأة على الرجل وهذا من أحسن الأساليب وأبدع الخيال.

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعضُ دم الغزالِ

المعنى: يقول ـ وقد انتقل في القصيدة من الرثاء إلى مدح سيف الدولة ـ: أيها الملك العظيم إن فضلت الناس وأنت من جملتهم، وتعيش بينهم، ومشارك لهم في الجنسية، فلا غرابة، فقد يفضل بعضُ الشيء كله، فالمسك وهو بعض دم الغزال، قد فاق أصله جملة، فربّ واحد قد فاق أمة، وبعض قد فاق جملة.

من كان فوق محل الشمس موضعُهُ فليس يرفعُهُ شيءٌ ولا يضعُ

المعنى: يقول مخاطباً سيف الدولة: من بلغ من الفضائل غايتها، وحل من المنازل أسماها، وحاز من الشجاعة أقصاها، فلا يرتفع بنصرة أحد، ولا يتضع بخذلانه، وإنك أيها الملك العظيم لكذلك، فشجاعتك فوق كل شجاعة، وقدرك

فوق كل قدر، تواضعت الشمس عن موضعك الذي يشتاقه كل سيد، ويقصر عن إدراكه كل عظيم.

فقد يُظَن شجاعاً من به خَرَقٌ وقد يُظَن جبانا من به زَمَعُ

المعنى: قد يخطئ ظنّ الإنسان فيطوح به عن الحقيقة، فيتوهم من به حماقة وخفة شجاعاً، ويظن من تعتريه رعدة من الغضب جباناً، فالعبرة بالتجربة، فهي التي تصيب بها كبد الحقيقة، وكأنه يقول لسيف الدولة: إني قد سبرت حالك، فإذا مدحتك بعد التجربة فلا أخطئ في مدحي إياك.

إن السلاحَ جميعُ الناسِ تحمله وليس كل ذوات المِخْلَبِ السَّبُعُ

المعنى: ليس كل رجل يحمل السلاح شجاعاً يقوى على المبارزة، كما أنه ليس كل ذي مخلب سبعاً يفترس بمخلبه، فقد يتقلد السلاحَ الجبانُ، وقد يوجد من ذوات المخالب ما دون السبع، فما كل أصفر ديناراً لصفرته، ولا كل حلو سكراً لحلاوته.

وما الخوف إلا ما تخوفه الفتى ولا الأمن إلا ما رآه الفتى أمنا

المعنى: الخوف والأمن ناشئان عن اعتقاد الإنسان في الشيء، رسولان يبعث بهما الوهم، وعرضان يُحدثهما الوجدان، فإذا اطمأن قلب المرء إلى شيء صار أمناً عنده، وإن كان غير مأمون، وإذا فزعت نفسه منه صار خوفاً، وإن كان غير مخوف، والبيت من قصيدة يمدح بها سيف الدولة، وكان قد توقف عن الغزو لما سمع بكثرة جيش الروم.

وحيدٌ مـن الخُلانِ في كل بلدةٍ   إذا عَظُمَ المطلوبُ قَلَّ المُسَاعِدُ

المعنى: يقول: أنا منفرد عن الأصدقاء الذين يعتمد عليهم في الخطوب المتفاقمة، والنازلات الشديدة، فما لي من مساعد على تحقيق ما أطلب؛ وذلك لعظم مطلبي، وإذا عظم مطلوب المرء قل من يساعده عليه، والبيت من قصيدة يمدح بها سيف الدولة.

بـذا قضـت الأيام ما بين أهلهـا   مصائب قوم عند قوم فوائـد

إن طبع الأيام سرور قوم بإساءة آخرين، وما رأينا حادثاً من حوادث الأيام إلا سرت به طائفة، وسيئت به أخرى، فالدّهر يومان، يومٌ لك، ويومٌ عليك ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ..﴾ [آل عمران: ١٤٠] .

وفي تعب مَن يحسد الشمس نورها   ويَجْهـدُ أن يأتـي لها بضـريبِ

المعنى: يقول: إنّ من يحاول أن يأتي لسيف الدولة بنظير، كمن يحاول أن يأتي للشمس بمثل، فهو بين الناس كالشمس بين الكواكب، فكما أن الشمس لا يعدلها في ضوئها واحد من الكواكب، كذلك سيف الدولة، لا يعدله في فضائله أحد من الناس، ومن تكلف فهو كمن يرقم على صفحات الماء.

ويقول في قصيدة يمدح فيها سيف الدولة.

ومن صحب الدنيا طويلاً تقلبت   على عينيه حتى يرى صدقها كِذْبا

المعنى: من أحب الدنيا لزيادة ترف، وبسطة رزق، ورفيع منصب، لا يلبث أن يراها

قد تقلبت على عينه، فتريه عكس ما رأى، فيستحيل نعيمه بؤساً، وسعته إملاقاً، ويتبين له أنّ الدنيا غاشّة لمن استرشدها، ومغوية لمن أطاعها كما قال أبو نواس:

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشّفت لـه عن عدوّ في ثياب صـديقِ

ومن تكن الأُسدُ الضواري جدوده يكنْ ليله صبحاً ومطعمه غصبا

المعنى: من اشتد أزره في قومه، وقوي ركنه بينهم، لا تتعرض له في طريق مراده عقبة، ولا تستعصى عليه أمنية، ينال ما يريد من أعدائه قهراً، ويعود له العسير يسيراً.

أعيذهـا نظـرات منـك صـادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورمُ

المعنى: اعصم نظراتك من أن لا تكون نظرات يقين، فأنت إذا نظرت إلى الشيء بحسب ظاهره تصب منه كبد الحقيقة، فلا تغلط فتكون كمن ظن الورم شحماً، والسراب ماء، وقد أراد المتنبئ بهذا البيت أن يعاتب سيف الدولة، حيث توهم كل من يدعي الشعر شاعراً، وشبه حاله في ذلك بحال من ظن الورم شحماً، والبيت من قصيدة يعاتب بها سيف الدولة في محفل من العرب.

وما انتفـاعُ أخـي الدنيـا بناظِرِهِ إذا استوتْ عنده الأنوارُ والظُلَمُ

المعنى: ماذا يستفيد الإنسان من البصر إذا تساوت عنده الأشياء وأضدادها، فلم يفرق بين الغث والسمين، وبين النور والظلمة، وكأن المتنبئ يقول لسيف الدولة: يجب أن تميز بيني وبين أولئك الساقطين الذين قربتهم من مجلسك، بدعوى أنهم شعراء، كما تميز بين الأنوار والظلم.

إذا رأيـت نيـوب الليـث بـارزة فـلا تظـنَّنَّ أن الليـث يبتسـمُ

المعنى: إذا رأيت الأسد كشر عن أنيابه فلا تحسب ذلك منه تبسماً؛ لأن الأسد لا يبتسم؛ وإنما هو بذلك يتحفز للوثوب، وكأن المتنبئ في هذا البيت قاس نفسه بالأسد، في أنه إذا ضحك أمام الجاهل، كان ذلك منذراً بقرب الانتقام، ومؤذناً بحلول الافتراس.

وبيننـا لـو رعيتـم ذاك معرفـة إن المعـارف في أهل النهي ذِمَمُ

المعنى: قد جمعتني وإياكم رابطة الصحبة، وهي عند ذوي العقول الراجحة عهد يجب الوفاء به.

شـر البـلادِ مكانٌ لا صديقَ بـه وشر ما يكسبُ الإنسـانُ ما يَصِمُ

المعنى: أسوأ البلاد حالاً بلدٌ لا تجد فيه صديقاً تأنس بودّه، وتسكن نفسك إلى كريم فعله، يشاطرك السراء والضراء، وأخبث الربح ما ألصق بك العار، وألحق بك البوار.

وشـر مـا قنصـتْه راحتي قنص شـهب البُزَاةِ سـواء فيه والرَّخَمُ

المعنى: أخبث ربح ربحته في حياتي ما شاركني فيه الرفيع والوضيع، كما أنّ أخبث صيد ظفر به الصياد ما شاركه فيه البزاة الشهب مع رفعتها واختيارها أطيب الفريسة، والرخمُ مع دناءتها ووقوعها على أردأ ما يصاد. يريد المتنبئ أن ما منحه سيف الدولة من العطايا شاركه فيه أهل الغباوة والجهالة، فليست من المنح الخاصة بنظرائه، والتحف اللائقة بمثله. فشبه نفسه بشهب البُزاة في الرفعة وعدم الرضى بالدون، وشبه غيرَه من الشعراء الساقطين بالرخم في الضعة.

لعـل عتبـك محمـود عواقبـــه وربما صــحت الأجســام بالعللِ

المعنى: لعلّ ما أحدثه الوشاة من لومك إياي محمود العاقبة، مشكور المغبة، فقد يفسد العضو الواحد بالكيّ، فتصلح به بقية الأعضاء، فالعود لا يظهر أريجه إلا بعد أن يحترق، والصديق لا تزيد محبته إلا بعد أن يفترق، فرب لوم أفضى إلى احتفاء، ورب علة بعثت على تعجيل الشفاء، والبيت من قصيدة يعتذر بها إلى سيف الدولة.

لأن حلـمك حلـم لا تَكَلَّفُـــهُ ليـس التكحلُ في العينين كالكحـلِ

المعنى: يقول مخاطباً سيف الدولة: إن حلمك أيها الملك العظيم حلم طبعت عليه، فلا يتكلفه غيرك من الناس، وحلم الطبع غير حلم التكلف، كما أنَّ حسن الكحل الذي يكون خلقه في العين غير حسن الاكتحال.

وليـس يصـح في الأفهام شيء إذا احتـــاج النهـار إلـى دليـل

المعنى: إذا احتاج أحد إلى إقامة البرهان على وجود النهار، وقد عمّ نوره الآفاق، فاحكم عليه أن ليس في ذهنه شيء صحيح من البديهات والنظريات، وقد شبه المتنبئ شعره بالنهار، فمن أنكر فضله فكأنما أنكر وجود النهار، وهذا من أجود التشبيهات وأبدع الخيال، والبيت من قصيدة قالها في مجلس سيف الدولة وكان يمتحن الفرسان.

وما كَمَدُ الحسادِ شـيئاً قصدتُه ولكنــه من يَزْحَمِ البحـرَ يغـرقِ

المعنى: يقول: إن أولئك الحسدة الذين ينازعونني في فضائلي، رجعوا من

ذلك بالغلّ الذي أفعم صدورهم، وقطع أمعاءهم، على أنني لم أتعمد الضرر، فكأن مثلهم في ذلك، مثل الذي يتعرض مريج غمار البحر فيغرق، وما كان قصد البحر أن يغرقه، والبيت من قصيدة يمدح فيها سيف الدولة ويذكر الفداء الذي طلبه ملك الروم.

وإطراق طرف العين ليس بنافع إذا كان طرف القلب ليس بمطرق

المعنى: العبرة بما يلحظه القلب، لا بما تلحظه العين، فالقلب ملك الحواس، وهي مسخرات بأمره، فلا يكون إلاّ ما يطلبه، فإذا أغضت العين عن شيء، وقد اتجه إليه القلب، فلا يُجدي إغضاؤها.

أيدري ما أرابك من يريب وهل ترقى إلى الفلك الخُطُوبُ

المعنى: أتدري تلك الآلام التي ساورتك، وهذه النّازلات التي أحدقت بك، بمن تحل؟! وممن تنال؟! وكيف تصل إليك الخُطُوب، وقد ساكنت النجوم جواراً، فكنت في المنزلة نظير فلك السماء، وهل ترقى إلى الفلك الخطوب؟! والبيت مطلع قصيدة قالها عند اشتكاء سيف الدولة من دُمل.

وما قَتَلَ الأحرارَ كالعفو عنهمُ ومن لك بالحرِ الذي يحفظ اليدا

المعنى: الحُرُّ إذا أنت عفوت عن زلته، وصفحت عن سقطته، أثر ذلك في نفسه تأثيراً يفوق وخزات السنان، فكأنما قتلته بعفوك وطعنته بعطفك، وقلما تجمعك الأيام بحر يراعي الجميل، ويستبقي المعروف، والبيت من قصيدة يهنئ فيها سيف الدولة بعيد الأضحى.

إذا أنت أكرمت الكريم ملكتَـهُ وإن أنت أكـرمــتَ اللئيـمَ تمردا

المعنى: الكريم إن أنت أوليته منك إحسانًا فقد أسرت نفسه، وملكت قلبه، وأما اللئيم، فإن عطفت عليه، زدته تعديًا وتطاولاً، فإنّ إكرامك إيّاه يطمعه فيك؛ فينهال عتوًا وتحملاً.

ووضع النُدى في موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف في موضع الندى

المعنى: الحكيم من يتفرس في الناس، فيعامل كلاً بما يلائم حاله من لين وشدة، يخاشن في مواضع المخاشنة، ويلاين في مواضع الملاينة، فإذا هو عكس الآية، واستعمل الإحسان في موطن الإساءة، والإساءة محلّ الإحسان، أضر ذلك بعلاه، وأبعده من بلوغ مناه، وطوّح به فى مهواة لا يسعه النجاة منها.

وأتْعَبُ من نـاداك مَن لا تجيبُهُ وأغيظُ مَنْ عاداك من لا تُشاكلُ

المعنى: يقول: أتعب حاسديك بمخاطبتهم إياك من ترفعت عن مجاوبته، وتنزهت عن مشافهته، وأشد أعدائك عليك حنقاً من لا يماثلك في منزلتك، ولا يضارعك في درجتك، والبيت من قصيدة يمدح بها سيف الدولة عند دخول رسول ملك الروم عليه.

على قدر أهل العزم تأتي العزائمُ وتأتي على قدر الكـرام المكارمُ

المعنى: تكون مطالب المرء التي يعزم عليها، والغايات التي يُوطن النفس على بلوغها، بمقدار ما بلغه من عالي الهمّة وقوة الإرادة، فإن كان كبير النفس قويّ العزم، كان الأمر الذي يعزم عليه عظيماً، وكذلك المكارم تكون على قدر ذويها،

فمن كان من الناس أكرم كان ما يأتيه من المكارم أعظم، والبيت مطلع قصيدة يمدح بها سيف الدولة .

وما الحسن في وجه الفتى شرفاً له ... إذا لم يكن في فعله والخلائقِ

المعنى : يبلغ المرء الشرف والرفعة من كماله لا من جماله، ومن حسن مخبره لا من بهاء منظره، فلا يغنيه جميل الخلقة، مع قبيح الفعل والخليقة، والبيت من قصيدة يذكر فيها إيقاع سيف الدولة بقبائل العرب.

وما بلد الإنسان غير المُوافقِ ... ولاأهله الأدنون غير الأصادقِ

المعنى : كل بلد زكا خيره، وطاب هواؤه، ووافقك مناخه، وتوفرت لك فيه أسباب النعيم، فهو بلدك الحقيقي، وكل ناس أخلصوا لك النصيحة، ومحضوا لك الود، فهم أهلك الأدنون، وعشيرتك الأقربون، وفي هذا البيت حث على التغرب عن الوطن، إذا ضاق به العيش، وساءت الحال.

وإذا لم تجد من الناس كُفْواً ... ذاتُ خِدْرٍ أرادت الموت بعلا

المعنى : يقول: إذا لم تجد ربة العفاف، وذات الخدر والصينة من الأزواج من هو كفوٌ لها في شرفها، ويماثلها في حسبها ونسبها، اختارت الموت لها زوجاً، فهو يتكفل بصيانتها، ويحتفظ بأثيل مجدها، وكريم حسبها، والبيت من قصيدة يعزي فيها سيف الدولة بأخته.

وإذا الشيخ قال : أُفٍّ فما مـ ... ـلَّ حياة وإنما الضعفُ ملا

المعنى : إذا رأيت كبير السن يتضجر، فلاتظن أنه سئم الحياة، وملّ العيش،

وإنّما هو ملّ الضعف والهرم، واستكره الكبر والألم، تلك العوامل التي تحجب عنه لذة الحياة، وحلاوة العيش، فالحياة تستحب في الشبيبة والكبر، حب الحياة طبيعة الإنسان.

آلة العيش صحة وشبابٌ فإذا ولّيا عن المرء ولّى

المعنى: لا يطيب العيش إلا بشيئين: الصحة والشباب، فإذا فقد الإنسان أحدهما أو كليهما، اختلّ نظامه، وذهب رونقُه، ودنا أجلُه، وخاب أملُه.

وإذا ما خلا الجبانُ بأرضٍ طلب الطعن وحده والنزالا

المعنى: إذا انفرد الجبان بأرضه، وبعد عن الأقران بنفسه، طلب المنازلة والمجالدة، وأظهر الرغبة في القتال والمبارزة، حتى إذا جاءه شجاع يُبارزه فرَّ عن قِرنه، ورجع إلى عادته من جُبنه، والبيت من قصيدة يمدح بها سيف الدولة ويذكر نهوضه إلى الثغر.

من أطاق التماسَ شيء غِلابَاً واغتصاباً لم يلتمسه سُؤَالا

المعنى: طبع الإنسان على حب الغلبة والاستظهار، فإذا هو استطاع أن ينال الشيء بالاغتصاب والعنف، أبى أن يلتمسه بالسؤال والرّفق، ليبين للنّاس أنّه من ذوي الحول والطولِ، وقد أكد هذا المعنى بالبيت بعده.

كلُ غادٍ لحاجة يتمنى أن يكون الغضنفر الرِّئْبَالاَ

المعنى: كل ساعٍ وراء حاجة يستنفد فيها منتهى الوسع، ويزاولها بغاية الجهد،

يودّ لو يبلغ قوة الغضنفر الرئبال ـ وهما اسمان للأسد ـ، حتى يكون في مقدمة الساعين، ومنقطع النظير بين الناجحين.

الرأي قبل شجاعة الشجعانِ ... هو أولٌ وهي المحل الثاني

المعنى: الرأى له المكانةُ الأولى من فضائل الإنسان، وللشجاعة المكانة الثانية، فالشجاعة من غير رأي لا تجدي، ورُبما أودت بحياة صاحبها؛ لأنها تكون تهوراً صرفاً، والبيت من قصيدة يمدح بها سيف الدولة عند قدومه من بلاد الروم.

ولربما طَعَنَ الفتى أقرانَه ... بالرأي قبل تَطَاعُنِ الأقرانِ

المعنى: قد ينال الإنسان بعقله ما لا يستطيع أن يناله بشجاعته، وذلك أنه ربما طعن الفتى نظراءه برجاحة عقله، وأصالة رأيه، قبل الطعن بشفرة السيف، وحدّ النّصال، فينصب لهم الحبائل بتدبيره، ويحتال للإيقاع بهم والاستظهار عليهم بعقله.

لولا العقول لكان أدنى ضيغم ... أدنى إلى شرف من الإنسانِ

المعنى: العقل قوة فوق القوى، ومزية دونها المزايا، لولاه لكان أقل حيوان مفترس أقرب من الإنسان إلى الشرف، وأوسع منه في النفوذ والسلطان.

وكل يرى طُرْقَ الشجاعة والندى ... ولكن طبعَ النفس للنفس قائدُ

المعنى: الشجاعة والندى فضيلتان، لا يجهل أحد طريق الوصول إليهما، ولكن طبيعة النفس تثني عزم المرء عن الشجاعة خشية العطب، ويصده عن الجود مخافة الإملاق، والبيت من قصيدة يمدح بها سيف الدولة.

وعاد في طلب المتروك تارِكُه إنا لنغفل والأيامُ في الطلبِ

المعنى: من المتعين على الحكيم أن يعد لحوادث الأيام عدّتها، ويتأهب لدرء نازلاتها، فإذا هو غفل عن ذلك، فالأيام له بالرصد، تطالبه بما ترك، وتحاسبه على ما فرط، هذا تفسير البيت على أنه من الحكم، أما باعتبار سياق قصيدة الرثاء بموت أخت سيف الدولة الكبرى، فمعناه أنّ الموت تركها، ثم عاد فأخذها.

وما قضى أحد منها لُبَانَتَهُ ولا انتهى أَرَبٌ إلا إلى أَرَبِ

المعنى: نشأ الإنسان وقلبه مفعم بالشهوات، مزدحم بالغايات، فلا تتقضي له من الأيام حاجات، فإذا ما تمت مأربة سنحت له أخرى.

ومن تفكر في الدنيا ومهجتِه أقامه الفكرُ بين العجزِ والتعبِ

المعنى: شغفُ الإنسان بالدنيا ورونقها يبعثه على الكدّ في طلبها، وحرصه على سلامة نفسه يثني عزمه عنها، فلا يزال بين عاملين يتناوبانه وهما: حب الحياة وحب السلامة، فالأول يحبب إليه التعب والعمل، والثاني يزين له العجز والكسل.

إذا كنت ترضى أن تعيش بذلة فلا تَسْتَعِدَّنَّ الحُسَامَ اليَمَانِيَا

المعنى: إنما تحملُ السيف لتدرأ به عن شرفك ومنعتك، ولتكون رفيع المقام عزيز الجانب، فإذا كنت ترضى أن تعيش ذليلاً ممتهناً، فماذا تصنع بالسّيف أيها الوضيع؟! والبيت من قصيدة يمدح بها كافوراً.

فما ينفع الأُسْدَ الحياءُ من الطوى ولا تُتَّقَى حتى تكون ضواريا

المعنى: للأسد من بين الحيوانات صولة، يمتاز عنها بأنه يستحيي أن يتعرض لفريسة غيره، فيأكل منها ولو بات على الطَّوى، لكنه لا يُغنيه حياؤه من الجوع شيئاً، إلاّ إذا نشط وخرج من عرينه ساعياً متصيداً حتى يسد عوزه، كذلك لا يُخشى جانبه، ولا يُغضى من مهابته، إلاّ إذا كان مفترساً ضارياً، وفي البيت حث على السَّعي وعلُوّ الهمَّة.

إذا الجود لم يُرْزَق خلاصاً من الأذى فلا الحمدُ مكسوباً ولا المالُ باقياً

المعنى: الجود والمال ذريعة إلى الحمد، والامتنان به أذى يستوجب الذّم، فإذا لم يكن الجود من المنّ خالصاً، ضاع المال من غير أن يكتسب المرء حمداً، ولم يتّخذ على الجود أجراً.

و للنفس أخلاق تدل على الفتى أكان سخاء ما أتى أم تساخيا

المعنى: قد يتكلف الإنسان من الفعال ما ليس من طبعه، فيجود وطبعه البخل، ويتشجع وعادته الجُبن، ولكن الخصال إذا تكررت فتباينت، والسجايا إذا تتابعت فتغايرت، انكشف النّقاب عن حقيقة ما يأتيه؛ إن كان طبعاً أو تطبعاً، فسُرعان ما تتغير الفعال المتكلفة، فهي أشدّ انقلاباً من الريح الهبوب.

فما الحداثة من حلم بمانعةٍ قد يُوجد الحلم في الشُّبانِ والشيبِ

المعنى: صغر السن لايمنع من أن يكون الإنسان حليماً، فقد نجد الشاب يستعمل الأناة والحلم، كما يفعل الشيخ، نعم، وإن كان للشاب نزق وخفة، فليس ذلك أمراً مطرداً، فلكل قاعدة شذوذ، والبيت من قصيدة يمدح بها سيف الدولة.

وما الصارمُ الهنديُّ إلا كغيره إذا لم يُفارقه النجاد وغمدُهُ

المعنى: الشيء لا يظهر فضله على غيره إلاّ بالتجربة، وكذلك السيف القاطع ما دام في غمده فلا يفضل السيف المسلول، وإنما يعرف مضاؤه إذا استل من جفنه، وحصل به الطعن، وقد شبه المتنبئ نفسه بالصارم، حيث جهل الناس فضله، فلم يدركوا الفرق بينه وبين غيره، والبيت من قصيدة يمدح بها كافوراً.

إذا ساء فعلُ المرء ساءت ظنونُه وصدَّق ما يعتاده من توهمِ

المعنى: المرء إذا لؤم طبعه، وساءت فعاله، ساءت لذلك ظنونه بالناس، فيتوهم السوء في كل شيء يراه أو يسمعه، فكل حركة تقع أمامه من أحد يتوهمها شراً له، وإيقاعاً به، لأنه كثير المساوئ، فهو دائماً يوجس في نفسه خيفة، ويرقب شراً، والبيت من قصيدة يمدح بها كافوراً.

وأحلم عن خِلي وأعلم أنه متى أجزه حلماً على الجهل يندمِ

المعنى: إذا فعل الصَّديق ما لا يليق، صفحت عنه حلماً، لاعتقادي أنّ مجازاته بالحلم خير؛ لأنه يبعث في نفسه الندم على ما فرط منه، فيرعوي عن غيه، ويثوب إلى رشده، ويبادر إليّ مُعتذراً سميعاً مُطيعاً، ويعلم أنني نِعم الصَّديق.

لمن تطلب الدنيا إذا لم ترد بها سرورَ محب أو إساءةَ مجرمِ

المعني: إنما يسعى الإنسان وراء متاع الحياة من جمع المال، واعتلاء المناصب، ابتغاء سرور المحب ومعونته، أو إساءة العدو ونكايته.

إنمـا تنجــح المقالــة فـي المــر ءِ إذا صادقت هـوىً في الفـؤادِ

المعنى : إنما يبلغ القول النجاح ويفضي إلى المقصود منه إذا وافق هوى في القلب، وميلاً في النفس، وإلا فهو صرخة في واد، ونفخة في رماد، والبيت من قصيدة ينفي بها عن ابن الإخشيد الميل إلى ما يقوله الوشاة.

وكل امرئ يولي الجميل محببٌ وكـل مكـان ينبـت العـز طـيبُ

المعنى : كل امرئ تعود فعل الجميل وإسداء الخير، وبسط الكف محبب إلى الناس، يستميل نفوسهم بإحسانه، ويستعطف قلوبهم بكرمه، وكذلك كل مكان يجد فيه المرء الترف والعزّ، فهو المكان الطّيب، والبيت من قصيدة يمدح بها كافوراً.

ولو جاز أن يحـووا عُلاك وهـبتَها ولكنْ من الأشياءِ ما ليـس يُوهبُ

المعنى : يقول: إنك قد بلغت من المعالي غاية لا تُدرك، ومن الجود شأواً لا يُلحق، ولو كانت علاك مما يُوهب لوهبتها، ولكنّ من الأشياء مالا يسوغ هبته كالمجد والعلا.

ما كـل ما يتمنـى المـرء يدركـه تجري الرياح بما لاتشتـهي السفنُ

المعنى : أمانّي المرء شتى، وما كل ما يتمناه يُدركه، فقد يتهيأ المرء للشيء ويُعد له عدته، فتعترض له عقبات تصدّه عن إدراكه، وذلك كريان السفية يتوجّه بها طريقاً في اليمّ، فتطوح بها الرياح إلى غير ما قصد، والبيت من قصيدة قالها عندما بلغه أنّ قوماً نعوه في مجلس سيف الدولة بحلب وهو بمصر.

غير أن الفتى يلاقي المنايا كالحات ولا يلاقي الهوانا

المعنى: سهل على نفس الحُر أن يتجرّع كأس الحمام، ولايذوق طعم الهوان، فالموت ألم ساعة، والهوان آلام تترى، من قصيدة يمدح بها كافوراً.

وإذا لم يكن من الموت بُدٌّ فمن العجزِ أن تكون جباناً

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، فالجبان لا ينفعه الفرار، والشجاع لا يضره الإقدام، والعاجز من إذا ساورته مهمة هاب الخطر وقدم الحذر.

ومن هاب أسباب المنية يلقها ولورام أسباب السماء بسلمِ

كل ما لم يكن من الصعب في الأنـ ـفس سهل فيها إذا هو كانا

المعنى: يقول: الأمر الشديد إنما يصعب على النفس قبل وقوعه، فإذا وقع سهل.

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجودُ يفقرُ والإقدامُ قتَّالُ

المعنى: في الجود والإقدام سيادة الإنسان، ولولا ما يجده من مشقة على النفس من جرائهما لرأيت الناس كلهم سادة، فالجود يشق على النفس مخافة الفقر، والإقدام يعزّ عليها فراراً من القتل، وإنَّ للسيادة قوماً خاطروا من أجلها بالنفوس، وبذلوا أنفس الذخائر، وقليل ما هم، والبيت من قصيدة يمدح بها أبا شجاع فاتكاً.

ولـم أر فـي عـيوب الناس شـيئاً　　كنقـص القـادرين علـى التمـام

المعنى: لا عـيب في الناس أبلغ من عـيب من اسـتطاع أن يكون كـامـلا في الفـضل والنبل فلم يفـعل، إذا لا عُـذر لـه في ترك أسـبـاب الكمـال وفـي وسـعـة تحصيلها، وأنه الأولى بالعيب من الناقص الذي لا يقدر على الكمال.

وللسـر مني موضـع لا ينالــه　　نديم ولا يفضـي إليـه شـراب

المعنى: مكان السر من نفسي بحيث لا يبلغ حقيقته الصديق، ولا يدُب إليه دبيب الشـراب مع تغلغله في البدن، فللسر عندي مكان حريز، وموضع حصين، والبيت من قصيدة يمدح به كافوراً.

أعز مكان في الدُّنى سرج سابح　　وخير جليس في الزمان كتاب

المعنى: أفضل مكان يرى فيه الإنسان عزّه وسؤدده ظهر السابح، وخير جليس لا يشقى به المرء الكتاب، وذلك أن الفرس مطيـة الشجاع ورفيق النشيط، وتبلغ عليه ما تريد من نحو التجول في الأرجاء، ومبارزة الأعداء، أما الكتاب، فيقص عليك من أنباء ما قد سبق، ويتحفك بما فيه الكفاية، وينتهج بك سبيل الهداية.

ومـن جهلـت نفسُـه قـدرَه　　رأى غيـرُه منـه مالا يـرى

المعنى: من لم يعرف لنفسه حقها فأتبعها هواها استرسلت مع الشهوات، وغـررت به فيمـا لا تحمد عقباه، وزينت له السّوء، فيستحسن من خصاله ما يستقبحه النّاس من أمثاله، والبيت من قصيدة يذكر فيها خروجه من مصر.

أين الذي الهرمانِ من بنيانهِ ... ما قومُه ما يومُه ما المصرعُ

المعنى: يقول: أين ذلك الملك المعظم الذي شاد الهرمين الكبيرين والبناءين الشامخين، أقامهما شاهدين بأثيل مجده، ونادر قدرته، شاب الزمان وهما شابان، ودرست معالم بانيهما، وهما قائمان، وغيبته بطن الأرض، وهما ظاهران، أين قومه على كثرة عَددهم وعُددهم، عفت آثارهم، وذهبت رسومهم، وفي هذا البيت تنبيه على أنّ كل حيّ هالك لا محالة، ولا سبيل إلى البقاء، من قصيدة يرثي بها أبا شجاع.

تتخلف الآثار عن أصحابها ... حيناً ويدركها الفناء فتتبعُ

المعنى: يقول: تبقى آثار المرء بعده حيناً من الدهر لتدلّ على بديع صنعه، وواسع علمه، وفرط ذكائه، وغزير فضله، ثم يُصيبها بعد ذلك ما أصابه من الفناء، فتذهب تلك الآثار كأن لم تغن بالأمس، تلك طبيعة الحياة وتصاريفها.

ولم تزل قلةُ الإنصافِ قاطعةً ... بين الرجال ولو كانوا ذوي رحمِ

المعنى: ترك الإنصاف داعية القطعية، ومجلبة الشقاق بين الناس، وإن كان بينهم صلة رحم، وجامعة قرابة.

إذا أنت لم تنصف أخاك وجدته ... على طرف الهجران إن كان يعقل

والبيت من قصيدة يرثي بها فاتكاً.

ذريني أنل ما لا ينال من العُلى ... فصعب العلى في الصعب والسهل في السهلِ

المعنى: يخاطب نفسه التي تلومه على ركوب الأهوال، يقول: اتركيني أيتها النفس أنل من المعالي ما لم ينله غيري مما تكل دونه الهمم، فما كان منها سهلاً قريب

التّناول فلا يتطلب تعباً، وماكان منها صعباً بعيد المنال فلا يكون إلاّ بمزاولة صعاب الأعمال، وركوب غمارها، والبيت من قصيدة يمدح بها أبا الفوارس.

تريدين لقيــان المعالــي رخيصــة ولابد دون الشهد من إبر النحــلِ

المعنى : يقول: أتريدين أيتها النفس نيل العلى عفواً بلا تعب، وهي كالشَّهد الذي لا يجنيه مشتاره إلاّ بعد أن يلاقي وخزات إبر النّحل، فكأنك تنزعين إلى طلب المستحيل وإدراك ما لا يكون.

عرض وتحليل

إذا قيل رفقاً قال للحلم موضع وحلم الفتى في غير موضعه جهل

أي أنه إذا أمر بالرفق بالأقران، وقيل له أرفق رفقاً، قال: موضع الحلم غيرُ الحرب، يعني: أن الرفق والحلم يستعملان في السلم، وأما الحرب فلا رفق فيها بالأقران، والحليم فيها جاهلٌ كواضع الشيء في غير موضعه، وقد أكثر الناس في هذ المعنى ومن أشهر ما فيه قول الفند الزماني:

وبعض الحلم عند الجهل للذلة إذعان

وقول سالم بن وابصة:

إنَّ من الحلم ذُلاً أنت عارفه والحلم عن قدرةٍ فضل من الكرَمِ

وقال الخُزيمي:

أرى الحلم في بعض المواضع ذلة وفي بعضها عزاً يُسَوِّدُ صاحبه

وقال الأعور الشنّى:

خذ العفو واغفر أيها المرء إنني أرى الحلم ما لم تخش منقصة غنما

وقد ذكره أبو الطيب وقال: من الحلم أن تستعمل الجهل دونه، وقال: كل حلم أتى بغير اقتدار، البيت قال: إني أصاحب حِلمي وهو بي كرمٌ، البيت.

أهون بطول الثواء والتلف والسجن والقيد يا أبا دلفِ

غير اختيار قبلت برك بي والجوعُ يُرضي الأسود بالجيفِ

يقول: قبلته اضطراراً لا اختياراً، كالأسد يرضى بأكل الجيف إذا لم يجد غيرها لحماً، وهذا من قول المهلبي:

ما كنت إلاكلحم ميت   دعا إلى أكله اضطرارُ

ومثله لدعبل الخزاعي:

لعمر أبيك ما نُسِبَ المُعلَّى   إلى كرم وفي الدنيا كريمُ

ولكنَّ البلاد إذا اقشعرَّت   وصوّح نبتُها رُعِيَ الهشيمُ

ومثله قول الآخر:

فلا تحمدوني في الزيارة إنني   أزوركم إذ لا أرى متعللا

وأبو دلف هذا كان صديق المتنبئ، برّه وهو في سجن الوالي الذي كتب إليه:

أيا خدّد الله ورد الخدود   وقدَّ قدود الحسان القدود

يقول المتنبئ:

وحفيف أجنحة الملائك حوله   وعيون أهل اللاذقية صورُ

يقال في جمع الملك الملائكة والملائك جمع على غير قياس قَالَ حسان:

بأيدي رجال هاجروا نحو ربهم   وأنصاره حقاً وأيدي الملائكِ

وصُور جمع أصْوَر، وهو المائل يقال: صاره يصوره إذا أماله وصور يصور إذا صار مائلاً، ومنه قول الشاعر:

الله يعلم أنّا في تلفتنا   يوم الوداع إلى أحبابنا صُورُ

يقول: أحاطت بنعشه ملائكة السماء، حتى سمع لأجنحتهم حفيف، وعيون أهل بلده مائلة إليه إما لأنهم يحبونه، فلا يصرفون عيونهم عنه، شوقاً إليهَ وحزناً عليه، وإمَّا لأنهم يسمعون حسّ الملائكة، فيميلون نحو الحس الذي يسمعون.

كفل الثناء له برد حياته لما انطوى فكأنه منشورُ

يقال: أنشر الله الميت ومنه قوله تعالى:﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ [عبس: ٢٢]، ويقال أيضاً نشره، يقول: ثناء الناس عليه وذكرهم إياه بعده كفيل بردّ حياته؛لأنّ من بقي ذكره فكأنه لم يمت وهذا من قول الحادرة:

فأثنوا علينا لا أباً لأبيكمُ بإحساننا إن الثناء هو الخُلدُ

وقال التميمي أيضاً:

ردت صنائعه إليه حياته فكأنه من نشرها منشور

وقال ـ أيضاً ـ الطائي:

سلفوا يرون الذكر عيشاً ثانياً ومضوا يعدون الثناء خلوداً

*****

سُيحيي بك السُّمَّارُ ما لاحَ كوكبٌ ويحدو بك السُّفَّارُ ما ذر شارقُ

أي يحيون الليل بذكرك وحديثك، والمسافرون يغنّون بمدائحك فيحدون الإبل بها، وقوله: ما لاح كوكب وما ذر شارق من ألفاظ التأبيد، والمعنى أبداً، أي أنت أبداً تذكر في الأسفار، ويحدى بمدائحك في الأسفار، هذا هو الظاهر، وقوم يقولون: ما لاح كوكب أي ما بقي من الليل شيء، وما ذرّ شارق أي ما بقي من

النهـار شيء تـرى فيـه الشـمس، وبهـذا قـال ابن جنّي أي يسـيـرون إليك نهـاراً فينشدون مديحك، وإذا جاء الليل سمروا بذكرك، والقول هو الأول؛ لأنّ الحُـداء لا يختص بالنهار بل يكون بالليل في أكثر الأمر وغالب العادة.

إذا بـدا حجبـت عينيـك هيبتُـه وليس يحجبـه سـترٌ إذا احتجبا

يريد أنه شديد الهيبة إذا ظهر للرّائين حجبت هيبته عيونهم عن النظر إليه كما قال الفرزدق:

يغضِي حياء ويغضَى من مهابته فمـا يُكلَّـمُ إلا حـين يبتسـمُ

وقال أيضاً:

وإذا الرجـال رأوا يزيـدَ رأيتهـم خُضـعَ الرقاب نواكسَ الأبصارِ

وقال أبو نواس:

إن العيـون حجـبن عنـك بهيبـة فإذا بـدوت لهُـنَّ نُكِّس نَاظِـرُ

وقوله:

ليـس يحجبـه سـتر

يريد أن نور وجهه يغلب الستور فيلوح من ورائها كما قال:

أصـبحت تأمـر بالحجاب لخلـوة هيهات لست على الحجاب بقادر

وذكر ابن جنّي تأويلين آخرين، أحدهما، أنّ حجابه قريب لما فيه من التواضع فليس يقـصـر أحد أراده دونه وإن كـان مـحـتـجبـاً، والآخـر أنه وإن احتجب فليس بمحتجب لشدة تيقظه ومراعاته للأمور.

ونذيمهم وبهم عرفنا فضله وبضدها تتبين الأشياء

يقول نعيب اللئام، وفضله إنما يعرف بهم؛ لأن الأشياء إنما تتبين بأضدادها، فلو كان الناس كلهم كراماً مثله لم نعرف فضله، وقال ابن جني: وهذا كقول المنبجيّ:

فالوجه مثل الصبح مبيضّ والشعر مثل الليل مسودُّ

ضدّان لما استجمعا حسنا والضدُّ يُظهرُ حسنه الضدُ

وقال هذا البيت مدخول معيوب؛ لأنه ليس كل ضدّين إذا اجتمعا حسنا، ألا ترى أن الحسن إذا قرن بالقبيح بان حُسن الحسن وقُبح القبيح، وبيت المتنبئ سليم؛ لأن الأشياء بأضدادها يصح أمرها. انتهى كلامه وقد أكثر الشعراء في هذا المعنى قال أبو تمام:

وليس يَعرِفُ طيبَ الوصلِ صاحبُهُ حتى يُصابَ بنأيٍ أو بهجْرانِ

وقال أيضاً:

والحادثات وإن أصابك بُؤسها فهو الذي أنباك كيف نعيمها

وقال أيضاً:

سَمُجتْ ونَبَّهنَا على استسماجها ما حولها من نضرة وجمالِ

وكذاك لم تُفْرِطْ كآبةُ عاطلٍ حتى يجاورها الزمان بحالي

وقال البحتري أيضاً:

قد زادها إفراط حسن جوارها خلائق أصفار من المجد خُيَّبِ

وحسن دراريِّ الكواكب أن تُرى طوالعَ في داجٍ من الليل غيهبِ

وقد ملح بشار في قوله:

وكان جواري الحيّ إذ كنت فيهمُ قِباحاً فلما غبتِ صِرنَ مِلاحا

وأبو الطيب صرح بالمعنى، و بيّن أن مجاورة المضادّة هي التي تثبت حسن الشيء وقبحه ثمّ أخفاه في موضع آخر فقال:

ولولا أيادي الدهر في الجمع بيننا غفلنا فلم نشعر له بذنوبِ

*****

متفرق الطعمين مجتمع القوى فكأنه السراء والضراءُ

يقول: فيه حلاوة لأوليائه، ومرارة لأعدائه، وهو مع ذلك إنسان واحد، قواه مجتمعة غير متباينة، وأوّل هذا المعنى للبيد:

ممقر مرّ على أعدائه وعلى الأدنين حلو كالعسل

ثم تبعه الآخرون فقال المسيب بن علس:

هم الرَّبيع على من ضاف أرحُلهم وفي العدو مناكيد مشائيم

وقال علاقة بن عركيّ:

وكنتم قديماً في الحروب وغيرها ميامين في الأدنى لأعدائكم نُكْدُ

وقال كعب بن الأجذم:

بنو رافع قوم مشائيمُ للعدى ميامن للمولى وللمتجرّمِ

وقال النابغة الجعدي:

فتى تم فيه ما يسر صديقه ... على أن فيه ما يسوء الأعاديا

قال ابن فورجة: مجتمع القوى يعني قويّ العزائم والآراء، وأنكر القول الأول وهو قول ابن جنّي. ا. هـ.

أعدى الزمان سخاؤه فسخا به ... ولقد يكون به الزمان بخيلا

قال ابن جنّي: أي تعلم الزمان من سخائه فسخا به، وأخرجه من العدم إلى الوجود، ولو لاسخاؤه الذي أفاد منه، لبخل به على أهل الدنيا، واستبقاه لنفسه، قال ابن فورجة: هذا تأويل فاسد، وغرضٌ بعيدٌ والسخاء بغير الموجود لا يوصف بالعدوى، وإنما يعني سخا به عليّ وكان بخيلاً به، فلمّا أعداه سخاؤه أسعدني الزمان بضمّي إليه وهدايتي نحوه، هذا كلامه، والمصراع الأول مقول من قول ابن الخيّاط:

لمست بكفي كفه أبتغي الغنى ... ولم أدر أن الجود من كفه يعدي

فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى ... أفدتُ وأعداني فأتلفت ما عندي

وقال الطائي أيضاً:

علمني جودك السماح فما ... أبقيت شيئاً لديَّ من صِلتك

وقال أيضاً:

لست يحيى مصافحاً بسلام ... أنني إن فعلت أتلفت مالي

وأبو الطيب نقل المعنى إلى الزمان، والمصراع الثاني من قول أبي تمام:

هيهات أن يأتـي الزمـان بمثلـه ... إن الزمـان بمثلـه لبخيـل

الحـب ما منـع الكـلام الألـسنا ... وألـذ شـكوى عاشـق ما أعلنـا

رُوِيَ الألسَنا بفتح السين ويكون على هذه الرواية بمعنى الذي يقول: غاية الحبِّ ما منع لسانَ صاحبه من الكلام، فلم يقدر على وصف ما في قلبه منه كما قال المجنون:

ولما شكوت الحب قالت كذبتني ... فمالي أرى الأعضاء منك كواسيا

فما الحب حتى يلصق الجلد بالحشا ... وتخرس حتى لا تجيب المناديا

وكما قال قيس بن ذريح:

وما هـو إلا أن أراهـا فجـاءةً ... فأبهـت حتى ما أكـاد أجيـبُ

ويجوز أيضاً أن يكون ما بمعنى الذي على رواية من روى الألسُنا بضم السين، والظاهر أن ما نافية؛ لأن المصراع الثاني حث على إعلان العشق وإنما يعلن من قدر على الكلام وكما يقول الموصلي:

فبُحْ باسم من تهوى ودعني من الكنى ... فلا خير في اللذات من دونها سترُ

ويقول السري الرفاء:

ظهر الهوى وتهتكت أستاره ... والحب خير سبيله إظهاره

أعصي العواذل في هواه جهارة ... فألذ عيش المستهام جهاره

*****

وإذا أتتك مذمتي من ناقص   فهي الشهادة لي بأنّي كاملُ

يقول: إذا ذمني ناقص كان ذمّه دليل كمالي وفضلي؛ لأن الناقص لا يحبّ الكاملَ الفاضلَ لما بينهما من التفاضل، وهذا من قول أبي تمام:

لقد أسف الأعداء فضل ابن يوسف   وذو النقص في الدنيا بذي الفضل مولع

وأخذه هو من قول مروان بن أبي حفصة:

ما ضرني حسد اللئام ولم يزل   ذو الفضل يحسده ذوو التقصيرِ

وأصل هذا من قول الأول:

لقد زادني حباً لنفسي أنني   بغيضٌ إلى كل امرئٍ غير طائلِ

وأنّي شقيٌّ باللئام ولا أرى   شقيًا بهم إلا كريم الشمائِلِ

*****

أبدو فيسجد من بالسوء يذكرني   ولا أعاتبه صفحاً وإهوانا

يقول: من يذكرني بالسوء في غيبتي إذا ظهرت له عظمني، وخضع لي، وأنا أعرض عن عتابه إهانة له، وإنما قال إهوانا لأنه أخرجه على الأصل ضرورة كما قال الآخر:

صددت فأطولت الصدود وقلما   وصال على طول الصدود يدومُ

يريد فأطلت فجاء به على الأصل.

وهكذا كنت في أهلي وفي وطني إنّ النفيس غريب حيثما كانا

يقول: كنت وأنا في وطني وفيما بين أهلي غريب، قليل الموافق والمساعد، ثمّ قال: وكذلك الرجل النفيس العزيز، غريب حيث كان، كما قال أبوتمام:

غرَّبته العلى على كثرة الأهـ ـل فأضحى في الأقربين جنيبًا

فليطل عمره فلو مات في مَرْ وَ مقيمًا بها لمات غريبًا

محسد الفضل مكذوب على أثري ألقى الكمِيَّ ويلقاني إذا حانا

قوله مكذوب على أثري من قول البرح التغلبي:

يغتاب عرضي خاليًا وإذا تلاقينا اقشعرًّا

ومن قول سويد بن أبي كاهل:

ويحييني إذا لاقيته وإذا يخلو له لحمي رتع

وتقدير الكلام مكذوب عليّ على أثري، أي يُكذب عليّ إذا قمت وخرجت من مشهد ومجمع، والشجاع إذا حان حينه لقيني في المعركة.

*****

وأحسب أني لو هويت فراقكم لفارقته والدهر أخبث صاحب

يريد أن الدهر يخالفه في كل ما أراد، حتى لو أحب فراقهم لواصلوه، وكان من حقه أن يقول لفارقتني؛ لأن قوله لفارقته فعل نفسه وهو يشكو الدهر، ولا يشكو فعل نفسه، ولكنّه قلبه لأن من فارقك قد فارقته فهذا من باب القلب وإنما قال أخبث صاحب، وكان من حقه أن يقول أخبث الأصحاب؛ لأنه أراد أخبث من

يصحب، وما كان اسم فاعل في مثل هذا يجوز فيه الإفراد والجمع. قال الله تعالى:﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ [البقرة:٤١] يعنى لاتكونوا أول من يكفر به وأنشد الفراءُ:

وإذا هم طعموا فألأم طاعم ... وإذا هم جاعوا فشر جياعِ

فأتى بالأمرين جميعاً، وأشار أبو الطيب إلى أن من أهواه ينأى عني، ومن أبغضه يقرب منى لسوء صحبة الدهر إياي، كما قال لطف الله بن المعافى:

أرى ما أشتهيه يفر مني ... وما لا أشتهيه إلىّ يأتي

ومن أهواه يبغضني عناداً ... ومن أشناه يشبث في لهاتي

كأن الدهر يطلبني بثأر ... فليس يسره إلا وفاتي

*****

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله ... وأخو الجهالة في الشقاوة يَنْعَمُ

يريد أن العاقل يشقى وإن كان في نعمة لتفكّره في عاقبة أمره، وعلمه بتحول الأحوال، والجاهل ينعم وهو في الشقاوة لغفلته، وقلة تفكره في العواقب وقد قال البحتريّ:

أرى الحلم بؤساً في المعيشة للفتى ... ولا عيش إلا ما حباك به الجهل

وقال أبو نصر بن نباتة:

من لي بعيش الأغبياء فإنه ... لا عيش إلا عيش من لم يعلمِ

وسابق هذه الحلبة بن المعتزّ في قوله:

وحــلاوة الدنيــا لجاهلهـــا ومــرارة الدنيــا لمــن عقــلا

وأحسن ابن ميكال في قوله:

العقــل عــن درك المطالب عقلة عجبــاً لأمــر العاقــل المعقــولِ

وأخــو الدرايــة والنباهــة متعب والعيــش عيــش الجاهــل المجهولِ

وقد قال القدماء: ثمرة الدنيا السرور، وما سر عاقل قط؛ يراد بتفكُّره في العواقب وتخوفه إياها.

المتنبئ في المحكمة الشرعية

ما عليه:

١ ـ فمن ذلك أنه شبه حلاوة رشفات محبوباته لفمه بحلاوة التوحيد بقوله[١]:

يترشفن من فمي رَشَفاتٍ هنَّ فيه أحلى من التوحيدِ

وهذا البيت يدل على رقة دين المتنبئ، الذي تساوى عنده التوحيد الذي هو أساس الأعمال، برشفات محبوباته، فهو قول (كفري)، لا يقيم وزناً لدين الله، بل يسخر منه، ويُنزله إلى أسفل المنازل عندما يشبهه بهذه المعصية التي وقع فيها.

وقد حاول بعض المتعصبين لأبي الطيب توجيه هذا البيت الذي يشهد بقلة دينه توجيهاً آخر، فقالوا: بأن التوحيد هو نوع من التمور التي تُوجد في العراق!![٢]

وبعضهم اعترف بأن المراد من قوله«التوحيد» هو توحيد الله!، ولكنه تمحل في تخريج هذا القول بادعاء أن الدين لا يحكم على الشعر!، وأنه يجوز للشاعر مالا يجوز لغيره من أنواع التجاوزات![٣]

---

(١) ديوانه (١ / ٦٢) .

(٢) انظر: «الرُّف الطيب» لناصيف اليازجي (١ / ١٥).

(٣) انظر: شرح ديوان المتنبي لأبي البقاء العكبري (١ / ٣١٥) حيث نقل شيئاً من هذا عن ابن القطاع.

يقول القاضي الجرجاني متبنياً هذا الرأي الشاذ [١] في كتابه« الوساطة بين المتنبي وخصومه»:

(والعجب ممن ينقص أبا الطيب، ويغض من شعره لأبيات وجدها تدل على ضعف العقيدة، وفساد المذهب في الديانة. كقوله[٢]:

يترشفن من فمي رشفات ... هن فيه أحلى من التوحيدِ

وقوله[٣]:

وأبهر آيات التهامي أنه ... أبوك وأجدى ما لكم من مناقبِ

وهو يحتمل لأبي نواس قوله:

قلت والكأس على كـ ... ـفي تهوي لا التشامي

أنا لا أعرف ذاك الـ ... ـيوم في ذاك الزحام

وقوله[٤]:

يا عاذلي في الدهر ذا هجرُ ... لا قدرٌ صح ولا جبرُ

ما صح عندي من جميع الذي ... يُذكر إلا الموت والقبرُ

فاشرب على الدهر وأيامه ... فإنما يهلكنا الدهرُ

(١) ومثله عبدالرحمن البرقوقي في شرحه لديوان المتنبئ (٢ / ٤٠). وقال : « مثل هذه المبالغات مقبول مستساغ في مذهب الشعراء...» إلى آخر ما قال!

(٢) ديوانه (١ / ٣١٥).

(٣) ديوانه (١ / ١٥٤).

(٤) الموشح: ص ٢٧٦ .

(٤) الموشح: ص ٢٧٧ .

وقوله[١]:

عـاذلتي بالسـفاه والزجـر — اسـتمعي ما أبث مـن أمـري

باح لسـاني بمضـمر السـر — وذاك أنـى أقـول بالدهـرِ

بين ريـاض السـرور لي شيع — كافـرة بالحسـاب والحشـرِ

موقنـة بالممـات جاحـدة — لمـا رووه مـن ضـغطة القبـرِ

وليـس بعـد الممـات منقلـب — وإنمـا المـوت بيضـة العقـرِ[٢]

وقوله:

أأتـرك لـذة الصـهباء نقـداً — لما وعـدوه مـن لـبن وخمـرِ

حيـاة ثـم مـوت ثـم بعـث — حديث خرافـة يا أمَّ عمـروِ

وقد روي أنهما لديك الجن.

وقوله[٣]:

فـدع الملام فقد أطعتُ غـوايتي — ونبذتُ موعظتي وراء جـداري

ورأيت إيثـار اللذاذة والهـوى — وتمتعـاً مـن طِيْبِ هـذي الـدارِ

أحـرى وأحـزم مـن تنظـر آجل — ظنـي بـه رجـمٌ مـن الأخـبارِ

إنـي بعاجـل ما ترين موكـل — وسـواه إرجـافٌ مـن الآثـارِ

ما جـاءنا أحـدٌ يخبـِّر أنـه — في الجنـة مذ مات أو في النارِ

(١) الموشح: ص ٢٧٧ .

(٢) بيضة العقر: آخر بيضة تبيضها الدجاجة إذا هرمت.

(٣) الموشح: ص ٢٧٧، مع تغيير في رواية الأبيات.

فلو كانت الديانة عاراً على الشعر، وكان سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر، لوجب أن يمحى اسم أبي نواس من الدواوين، ويحذف ذكره إذاعُدت الطبقات، ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية، ومن تشهد الأمة عليه بالكفر، ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الزبعرى وأضرابهما ممن تناول الرسولﷺوعاب من أصحابه بكماً وخرساً وبكاء[1] مفحمين؛ ولكن الأمرين متباينان، والدين بمعزل عن الشعر)[2].

قلت: كيف يكون الدين بمعزلٍ عن الشعر، والله عزوجل قد سمَّى إحدى سور القرآن بسورة (الشعراء)، فهل هذا إلا لأجل بيان شمول الإسلام وأحكامه للشعراء وأقوالهم؟ وقد قال سبحانه: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨][3]، وقالﷺ: « إن الله قد عفا لأمتي الخطأ و النسيان وكلام غائب العقل».

ومسألة (علاقة الدين بالشعر) هي مسألة طال فيها الكلام وتشعب، ما بين مؤيد ومعارض، منذ أن بد الشعراء يمارسون تجاوزاتهم الشرعية في أبياتهم الشعرية، خائضين في ألوانٍ من الردة والمعصية[4].

---

(١) البكاء: جمع بكيء، وهو من قل كلامه خلقه.

(٢) الوساطة بين المتنبئ وخصومه(ص٦٣ - ٦٣).وقد حاول الدكتور عبدالباسط بدر حمل كلام القاضي الجرجاني على محمل حسن في كتابه« مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي».

(٣) سورة ق، الآية: ١٨ .

(٤) يعد أبو بكر الصولي من أوائل من خاض في هذه المسألة عندما تصدى للدفاع عن (تجاوزات) أبي تمام في كتابه« أخبار أبي تمام» قائلاً: (ما ظننت أن كفراً يُنقص من شعر) (ص ١٧٢) .

عندما هب أهل الإسلام معنفين لهم، وزاجرين عن ركوب هذا الشطط، ومفارقة الإيمان وأهله، وقابلهم أناسٌ لم يقدروا الله حق قدره، ولم يُعطوا شرعه، نصَّبوا أنفسهم للدفاع عن تلكم التجاوزات وتبريرها، ثم مفترين مقولة: إن الدين لا علاقة له بالشعر[1].

قال الدكتور ناصر الخنين ملخصاً لقول الصواب في هذه القضية[2]:

(وهذا الكلام مجمل ينبغي توضيحه وتخصيصه؛ فهناك فرق كبير بين أن يقول شاعر مسلم شعراً فيه كفر وإلحاد، ويعلنه ويجاهر به، وبين أن يقول كافر شعراً حسناً لايحمل معنى الكفر، ولا يقود إلى الإلحاد، بل قد يكون فيه خير، أو دعوة إليه، فهذا الأخير لا ضير فيه، ولا خوف في قبول حسنه واستحسانه، وسماعه واستنشاده، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، وذلك حينما استنشد أشعار أمية بن أبي الصلت وسمعها.

أما الصنف الأول: وهو الأشعار الصادرة عن المسلم، فإن إسلام الشاعر لا يشفع لأشعاره جميعها بأن تكون مسلَّمة، لا شية فيها، أو مستحقة للاستماع، إنما الذي يستحق ذلك ويفوز به أشعاره الحسنة المستطابة، التي انطلقت من الإسلام واستنارت به، ولم تصادمه أو تناقضه، فهي بلا ريب مقدمة على أمثالها من

---

(١) وقد أطال الدكتور ناصر الخنين في كتابه «الالتزام الإسلامي في الشعر» الكلام حول هذه المسألة المهمة (٢٩٥ ـ ٣١٤) مبيناً تهافت أصحاب هذا القول. ومثله الدكتور عبد الباسط بدر في كتابه: «مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي» فارجع إليهما إن أردت البسط والزيادة.

(٢) الالتزام الإسلامي في الشعر (ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣).

أشعار الكفار، وذلك لمزية إسلام قائلها، ولصدق معانيه، ووضوح تصوره في غالب أحواله؛ لأنه قد استمد هذا الوضوح وذلك الصدق من الإسلام ذاته، لا من خواطره وأهوائه، ولذلك فإن أثرها على المسلمين حينما يسمعونها أو يقرؤونها أعظم وأبلغ.

وبذلك يتبين: أن الأشعار الصادرة عن المسلم وفيها كفر، أو سخرية بشيء من شعائر الدين، لا تستحق الاستماع من المسلمين، بل إنّ نفوسهم تنغلق دونها، وقلوبهم تنقبض منها، فينقص قدرها، ولا يكون لها نصيب من العناية، وإن تكن في الذروة الفنية من حيث الصياغة الشعرية.

ولهذا فقد اختلف العلماء في إقامة الحد على الشاعر المسلم فيما لو جاء في شعره بما يوجب الحد الشرعي.

ولا مرية في أن الأشعار التي تحمل الخبث والفسق يبوء صاحبها بها، وتحور عليه، ولكن لا ينبغي تمكينه هو أو غيره من إشاعة أشعار الفسق والمجون في أوساط المسلمين، وحتى لا يشككهم في دينهم، أو يفسد عليهم أبناءهم أوينال منهم).

وقال: ـ حفظه الله ـ[1]:

(ولو كان الشعر ضرباً من الخيال أو نوعاً من العبث اللفظي الذي لا يُلْقى له بال، ولا يحمِل معنى ولا يؤدي إليه، ولا يؤاخذ صاحبه عليه لما أعار الرسول عليه أفضل الصلاة والتسليم، اهتمامه إلى شعراء قريش، ولما ألقى لأشعارهم بالاً،

---

(١) المصدر السابق (ص٣٠٦) .

حينما هجوه وعابوا عليه دعوته.ولكن الأمر في ذلك مختلف؛ فقد أهدر دم الذين هجوه، وأمر شعراءه بالرد عليهم والنيل منهم جزاءً وفاقاً.

وهل الدين: إلا أوامر وزواجر؟ فكيف يقال بعد ذلك كله: (إن الدين بمعزل عن الشعر؟)، اللهم إلا إذا كان لدى قائل ذلك، أو من يُسلم بمذهبه، تأويل سائغ لكل ما تقدم، ويعضده الدليل ويشفع له التعليل، فإذا لم يكن ثمّ شيء من ذلك فقد بطلت تلك النتيجة وسقط ذلك الزعم، بفساد مقدماته وانعدام بيناته).

وأقول بعد هذا: إن بيت المتنبئ:

يترشفن من فمي رشفات ... هن فيه أحلى من التوحيد

هو من الأبيات التي عابه عليها العلماء والنقاد الذين يعلمون خطورة الدفاع عن من يحاد الله في شعره، متذكرين قوله تعالى: ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾[١].

وقال التوحيدي في شرحه لهذا البيت:

(يقول: كن يمصصن ريقي لحبهن إياي، كانت تلك الرشفات أحلى في فمي من كلمة التوحيد؛ وهي لا إله إلا الله، وهذا إفراط وتجاوز حد)[٢].

وقال ابن رشيق في « العمدة»[٣].

(١) سورة النساء: ١٠٩ .
(٢) (ص ٣٠).
(٣) (٢ / ٦٣).

(فإذا صرتَ إلى أبي الطيب صرتَ إلى أكثر الناس غلواً، وأبعدهم فيه همة، حتى لو قدر ما أخلى منه بيتاً واحداً، وحتى تبلغ به الحال إلى ما هو عنه غني، وله في غيره مندوحة، كقوله:

يترشفن من فمي رشفات هن فيه أحلى من التوحيد

وقال ابنُ القيم ـ رحمه الله ـ:

(فتأمل حال أكثر عشاق الصور تجدها مطابقة لذلك، ثم ضع حالهم في كفة، وتوحيدهم وإيمانهم في كفة، ثم زن وزناً يرضى الله به ورسوله، ويطابق العدل، وربما صرّح العاشق منهم بأن وصل معشوقه أحب إليه من توحيد ربه كما قال الفاسق الخبيث:

يترشفن من فمي رشفات هن فيه أحلى من التوحيد)[1].

٢ ـ ومن ذلك قوله[2]:

كل شيء من الدماء حرام شربه ما خلا دم العنقود

فاسقنيها فدى لعينيك نفسي من غزالٍ وطارفي وتليدي

فهو هنا يُحلل شرب الخمر التي يسميها (دم العنقود)، وهذا من التقول على الله بلا علم، بل هو تحليلٌ لما حرم الله، واعتراضٌ على حكمه تعالى.

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (ص ٣٥٤) ط دار ابن كثير.
(٢) ديوانه (١ / ٦٤).

وتحريم الخمر ليس مما يُجهل، فهي محرمة بنص الكتاب، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [١].

وتحليل الذي عُلم تحريمه بالضرورة من الدين، هو من الأعمال (الكفرية) التي هوى صاحبها في حفرة سحيقة، قادته إليها نفسه المتعالية المتكبرة على شرع الله وأوامره.

٣ ـ ومن ذلك قوله[٢]:

أبداً أقطع البلاد ونجمي في نحوس وهمتي في سعودِ

فهو هنا يؤمن بالنجوم، وأن لها تأثيراً في أقدار البشر، وهذا من الضلال المبين، وقد قال ﷺ: «من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد»[٣].

والعجب أن المتنبئ قد ناقض قوله هذا في شعر آخر له يقول فيه[٤]:

فتباً لدين عبيد النجوم ومن يدعي أنها تعقلُ

---

(١) سورة المائدة: ٩٠، ٩١.
(٢) ديوانه (١ / ٦٤).
(٣) أخرجه أحمد وأبو داود وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٧٤).
(٤) ديوانه (٢ / ٥٩).

ولكنها أخلاق الشعراء الذين يهيمون في كل وادٍ من القول، دون ضوابط أوتذكار لما سلف منهم، فقول أمس منقوض بقول اليوم.

٤ ـ ومنها قوله:

فاطلب العزّ في لظى وذرِ الـذ ـل ولو كان في جنان الخلودِ

وهذا امتهان لجنة الخلد التي وعد الرحمن عباده بالغيب، وهو يعلم أن من دخل الجنة فإنه لا يصيبه فيها ذل ولا خزي، بل هو عزيز في الدنيا، وعزيز في الآخرة، قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون:٨].

وأما من دخل النار فإنه في ذل وهوان، وقال تعالى عن أصحاب النار: ﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ [الشورى: ٤٥].

ومن كان منهم عزيزاً في الدنيا فإن عزه الموهوم ينقلب ذلاً وخزياً يوم القيامة، وفي ذلك قول الله عن (كبار) أهل النار: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾[الدخان:٤٩]. أي في الدنيا، وهذا من باب السخرية به، وزيادة حسرته عندما يتذكر عزه السابق. قال ابن كثير: (أي قولوا له ذلك على وجه التهكم والتوبيخ).

٥ ـ ومن ذلك قوله[1]:

أنا في أمة تداركها اللـ ـه غريب كصالح في ثمود

(١) ديوانه (١ / ٦٥).

وهذا القول منه في باب التعاظم الذي عُرف به الشاعر، وإلا فكيف يشبه هذا الشاعر المسرف نفسه بنبي الله صالح ـ عليه السلام ـ؟!

٦ ـ ومن ذلك قوله[١]:

لم يخلـق الرحمنُ مثـل محمدٍ أحـداً وظنـــي أنـــه لا يَخلُـــقُ

ولقد صدق الشاعر في هذا القول لو كان يقصد بمحمد الممدوح رسول الله ﷺ، فإنه أفضل الخلق بلا شك كما قال ﷺ: « **أنا سيد ولد آدم ولا فخر** »[٢]. ولكن الشاعر يقصد بمحمد هذا ممدوحه. وهذا القول: كذب عظيم وغلو فاحش، لا يتفوه به مسلم، وهو من الافتراءات على الله عز وجل.

ولكن، قد قلت سابقاً بأن المتنبئ يرتكب العظائم في سبيل تحقيق طموحاته الدنيوية الدنيئة.

٧ ـ ومن ذلك قوله[٣]:

ألا كل سمح غيرك اليوم باطل وكل مديح في سواك مُضيعُ

وقد كذب الشاعر، إن مدح الله عز وجل، ومدح رسوله عليه الصلاة والسلام ليس بمضيع، بل هو مما يدخره الإنسان لنفسه في الآخرة، وقد قال ﷺ: لأحد الشعراء لما قال: (إني قد حمدت ربي عز وجل بمحامده ومدح) قال ﷺ:

---

(١) ديوانه (١ / ٧٢).
(٢) أخرجه البخاري.
(٣) ديوانه (١ / ٧٦).

«أما إن ربك عز وجل يحب المدح»[(١)] أي يحب من عبده أن يمدحه ويحمده، فيثيبه على ذلك ولا يُضيعه.

٨ ـ ومن ذلك قوله[(٢)]:

يا من ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به مما أحاذرُهُ

لا يجبر الناسُ عظماً أنت كاسره ... ولا يهيضون عظماً أنت جابرُهُ

وهذا القول لا يصلح إلا في حق الله تعالى، فهو الملاذ والمستعاذ، وهو الذي لا يجبر الناس من كسر، ولايهيضون من جبر. قال شيخ الإسلام في هذين البيتين: (إنما يصلح هذا لجناب الله سبحانه وتعالى)[(٣)].

٩ ـ ومن ذلك قوله[(٤)]:

أنى يكون أبا البرية آدمٌ ... وأبوك والثقلان أنت محمدُ

يفنى الكلام ولا يحيط بفضلكم ... أيحيط ما يفنى بما لا ينفدُ

وهذا من الغلو الفاحش في المدح، والذي لا ينفد فضله هو الله سبحانه وتعالى، قال عز وجل: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦][(٥)].

---

(١) أخرجه أحمد (٣ / ٤٣٥) وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد(٦٦٠).

(٢) ديوانه (١ / ٨٧).

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (١ / ٢٧٥).

(٤) ديوانه (١ / ٩٤).

(٥) سورة النحل، الآية: ٩٦ .

١٠ ـ ومن ذلك قوله[١]:

دعوتك عند انقطاع الرجا ... ء والموتُ مني كحبل الوريدِ
دعوتك لمّا براني البلاءُ ... وأوهن رجليَّ ثقل الحديدِ

والمسلم الحق يلتجئ إلى الله عز وجل عند الكُرب، ويدعوه عند انقطاع رجائه بالناس، قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾[٢].

١١ ـ ومن ذلك قوله[٣]:

يا من نلوذ من الزمان بظله ... أبداً ونطرد باسمه إبليسا

والذي يُطرد إبليس باسمه هو المولى عز وجل، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[٤]. وقال ﷺ: « إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان وله ضُراط حتى لا يسمع التأذين»[٥]. فالشيطان يطرد بذكر الله ـ تعالى ـ.

وهذا البيت من حقه أن يُقال في الله عز وجل وذكره، لا في بشر قد يكون ممن قد تلاعب به الشيطان يمنة ويسرة.

١٢ ـ ومن ذلك قوله[٦]:

أو كان صادف رأسَ عازر سيفُهُ ... في يوم معركة لأعيا عيسى

(١) ديوانه (١ / ٩٨).
(٢) سورة النمل، الآية: ٦٢ .
(٣) ديوانه (١ / ١٠٣).
(٤) سورة النحل، الآية:٩٨ .
(٥) أخرجه البخاري.
(٦) ديوانه (١ / ١٠٢).

أو كان لُجُّ البحر مثلَ يمينه ما انشقَّ حتى جاز فيه موسى
أو كان للنيران ضوء جبينه عُبدت فصار العالمون مجوسا

وهذه الأبيات من السخرية بمعجزات الأنبياء، وعدم حفظ مكانتهم عليهم السلام.

فالمتنبئ يزعم ـ وهو كاذب ـ أن سيف الممدوح لو ضُرب به عازر[(١)] لما استطاع عيسى عليه السلام أن يحييه!! ونسي الشاعر أن إحياءه عليه السلام كان بإذن الله لا بإذنه. قال تعالى عن عيسى ـ عليه السلام ـ أنه قال: ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[(٢)].

وهكذا انشقاق البحر لموسى ـ عليه السلام ـ هو بإذن الله.

١٣ ـ ومن ذلك قوله[(٣)]:

وكأنما عيسى بن مريم ذِكرُهُ وكأنَّ عازرَ شخصُهُ المقبورُ

وهذا من احتقار الأنبياء ـ عليهم السلام ـ عندما يشبه ممدوحه بهم.

١٤ ـ ومن ذلك قوله[(٤)]:

فأعيذ إخوته برب محمدٍ أن يحزنوا ومحمدٌ مسرورُ
أو يرغبوا بقصورهم عن حفرةٍ حيَّاه فيها منكرٌ ونكيرُ

---

(١) عازر ـ كما يقول النصارى ـ هو الرجل الذي أحياه عيسى ـ عليه السلام ـ لأنه صديقه، وهذا من الإسرائيليات التي لا تُصدق ولا تُكذب (انظر: تفسير القرطبي٤ / ٩٤) وقد فُتن شعراء الحداثة ممن يدعون الإسلام بعازر هذا، وجعلوه رمزاً في أشعارهم لكل انبعاث بعد الممات تقليداً منهم لشعراء النصارى.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٤٩ .

(٣) ديوانه (١ / ١١٧).

(٤) ديوانه (١ / ١١٨).

وهذا القول من الافتراء وادعاء علم الغيب، حيث يزعم أن هذا الميت سيحييه منكر ونكير في قبره! وهو بهذا القول يزعم أنه يعزي ويواسي أهله.. وكان الأحرى به أن يعزيهم بما ثبت في السُّنة الصحيحة، من الدعوة إلى الصبر والرضى بالقدر.

١٥ ـ ومن ذلك قوله[١]:

ملكٌ تصوَّر كيف شاء كأنما   يجري بفضل قضائه المقدور

وهذا ادِّعاء سخيف، حيث يزعم أن القدر يوافق ممدوحه في كل ما يريد. وهذه لم تكن للأنبياء وهم أشرف الخلق وأفضلهم، فكيف بغيرهم ممن قد يكون من السفلة!؟

وقد قال تعالى لأشرف خلقه: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾[٢].

١٦ ـ ومن ذلك قوله[٣]:

فما ترزق الأقدار من أنت حارمٌ   ولا تحرم الأقدار من أنت رازقُ

وهذا القول لا يصلح إلا لله عز وجل، فهو الذي إذا أراد رزق عبد من عباده فلن يحرمه أحدٌ هذا الرزق، وإذا أراد حرمانه منه فلن يرزقه سوى الله.

---

(١) ديوانه (١ / ١١٩).
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١١٨ .
(٣) ديوانه (١ / ١٢٢).

قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾[١].

١٧ ـ ومن ذلك قوله[٢]:

إن المنيةَ لو لاقتهمُ وقفت   خرقاءَ تتهم الإقدام والهربا

وهذا غلو قد تجاوز الحد، حيث يزعم أبو الطيب أن الموت يفرق ويخاف من ممدوحه، والله قد أخبرنا بأن الناس هم الذين يفرون من الموت الذي هو ملاقيهم لا محالة: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ﴾[٣].

١٨ ـ ومن ذلك قوله[٤]:

ولو يمتهمْ في الحشر تجدو   لأعطوك الذي صلوا وصاموا

وهذا كذب من القول لا يجيده غير الشعراء! فهو يُخبر عن كرم ممدوحيه بأنه قد تجاوز الحد، وأنك لو استمنحتهم شيئاً يوم الحشر، فإنه من شدة كرمهم سيعطونك صلاتهم وصيامهم!! والله يقول عن ذلك اليوم العظيم: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[٥].

---

(١) سورة يونس، الآية.
(٢) ديوانه (١ / ١٤٣).
(٣) سورة الجمعة، الآية:٨ .
(٤) ديوانه (١ / ١٤٣).
(٥) سورة عبس، الآيات: ٣٤ ـ ٣٧ .

١٩ ـ ومن ذلك قوله[١]:

وأعطيت الذي لم يعط خلقٌ　　　عليك صلاة ربك والسلامُ

وهذا القول لا يصلح إلا لنبينا محمد ﷺ فهو الذي أعطي ما لم يُعط خلقٌ غيره، فقد قال ﷺ: «**أعطيت خمساً لم يعطهن نبي قبلي**»[٢] وهو الذي يُصلى عليه ويُسلم، هو وإخوانه الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأما غيرهم فلا يخص بصلاة أو سلام.

قال ابن القيم ـ رحمه الله بعد ذكره الخلاف في هذه المسألة ـ: (وفصل الخطاب في المسألة: أن الصلاة على غير النبي ﷺ؛ إما أن تكون على آله وأزواجه وذريته أو غيرهم، فإن كان الأول؛ فالصلاة عليهم مشروعة مع الصلاة على النبي ﷺ، وجائزة مفردة.

وأما الثاني: فإن كان الملائكة وأهل الطاعة عموماً الذين يدخل فيهم الأنبياء وغيرهم؛ جاز ذلك أيضاً، فيقال: « اللهم صل على ملائكتك المقربين وأهل طاعتك أجمعين»، وإن كان شخصاً معيناً، أو طائفة معينة؛ كره أن يتخذ الصلاة عليه شعاراً لا يخل به.

ولو قيل بتحريمه لكان له وجه. ولا سيما إذا جعله شعاراً له، ومنع منه نظيره، أو من هو خير منه، وهكذا كما تفعل الرافضة بعلي ـ رضي الله عنه ـ

---

(١) ديوانه (١ / ١٤٨).
(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

حيث ذكروه قالوا: عليه الصلاة والسلام، ولا يقولون ذلك فيمن هو خير منه، فهذا ممنوع لا سيما إذا اتخذ شعاراً لا يخل به، فتركه حينئذ متعين، وأما إن صلى عليه أحياناً بحيث لا يجعل ذلك شعاراً، كما يصلى على دافع الزكاة وكما قال ابن عمر للميت: « صلى الله عليه »، وكما صلى النبي ﷺ على المرأة وزوجها، وكما روي عن عليّ من صلاته على عمر، فهذا لا بأس به. وبهذا التفصيل تتفق الأدلة، وينكشف وجه الصواب، والله الموفق)(١).

٢٠ ـ ومن ذلك قوله(٢):

فلقد دهشتُ لما فعلت ودونه ... ما يُدهش الملكَ الحفيظَ الكاتبا

وهذا افتراء على ملائكة الله الكرام، حيث زعم أنها تدهش من أفعال ممدوح المتنبئ! والكتبة الحافظون لا يدهشون، وإنما يحصون أعمال بني آدم عليهم. قال تعالى: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾(٣). وقال عز وجل: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾(٤).

٢١ ـ ومن ذلك قوله(٥):

نفذ القضاء بما أردت كأنه ... لك كلما أزمعتَ أمراً أزمعا

---

(١) جلاء الأفهام (ص ٦٦٣ ـ ٦٦٤) تحقيق: مشهور سلمان.

(٢) ديوانه (١ / ١٥٧).

(٣) سورة ق، الآية: ١٨ .

(٤) سورة الانفطار، الآيات: ١٠ ـ ١٢ .

(٥) ديوانه (١ / ١٦٤) .

والقضاء لم يجرِ بما يشتهي أنبياء الله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فكيف بمن سواهم ممن يزعم المتنبئ أن القضاء ينفذ حسب ما يريدون؟!

٢٢ ـ ومن ذلك قوله[١]:

من يزره يزر سليمان في المـ ... ـلك جلالاً ويوسفاً في الجمالِ

وقد سبق مثل هذا، حيث شبه المتنبئ ممدوحيه بالأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وهو من الغلو.

٢٣ ـ ومن ذلك قوله[٢]:

رجل طينُه من العنبر الور ... د وطينُ العباد من صلصالِ

فبقيات طينه لاقت الما ... ء فصارت عذوبة في الزُلالِ

وهذا من غلوه المعتاد في ممدوحه في تصويره بصورة غير البشر الآخرين؛ قاصداً هباته وعطاياه!

٢٤ ـ ومن ذلك قوله[٣]:

طلبنا رضاه بترك الذي ... رضينا له فتركنا السجودا

فقد رضي المتنبئ أن يسجد لممدوحه ـ والعياذ بالله ـ والسجود كما هو معلوم لا يجوز لغير الله، وعندما عاد معاذٌ ـ رضي الله عنه ـ من اليمن وكان قد

---

(١) ديوانه (١ / ١٦٦).
(٢) ديوانه (١ / ١٦٨).
(٣) ديوانه (١ / ١٧٧).

شاهدهم يسجدون لعظمائهم، أراد أن يسجد لرسول الله ﷺ فنهاه النبي ﷺ عن ذلك(١).

٢٥ ـ ومن ذلك قوله(٢):

لو كان علمك بالإله مقسّماً ... في الناس ما بعث الإلهُ رسولاً

لو كان لفظك فيهم ما أنزل القـ ... ـرآن والتوراة والإنجيلا

وهذا غلوٌّ فاحش وقول (كفري) يقشعر جلد المؤمن من سماعه، حيث زعم الشاعر لممدوحه أن علمه كعلم الأنبياء، وأن لفظه كالقرآن والإنجيل والتوراة!! نعوذ بالله من الكفر والضلال.

٢٦ ـ ومن ذلك قوله(٣):

متى أحصيتُ فضلَك في كلامٍ ... فقد أحصيتُ حبات الرمالِ

وإن بها وإن به لنقصاً ... وأنت لها النهايةُ في الكمالِ

وهذا من الغلو في المدح، وإلا فإن النهاية في الكمال ليس إلا لله عز وجل فهو سبحانه «السيد الذي كمل في سؤدده، العليم الذي قد كمل في علمه والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد»(٤).

---

(١) أخرجه أحمد وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيحه(١٢٠٣).
(٢) ديوانه (١ / ١٩٢).
(٣) ديوانه (١ / ١٩٤).
(٤) تفسير ابن كثير (٤ / ٦٠٩ ـ ٦١٠).

٢٧ ـ ومن ذلك قوله[١]:

يا بدر إنك والحديثُ شجونُ ... من لم يكن لمثاله تكوينُ

لعظمت حتى لو تكون أمانةً ... ما كان مؤتمناً بها جبرينُ

وهذا القول فيه تنقص من جناب جبريل ـ عليه السلام ـ الذي أخبر الله عنه بأنه: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾[٢].

فالله عز وجل قد أخبرنا بأمانة جبريل ـ عليه السلام ـ وأنه غير متهم والمتنبئ يزعم أنه قد يخون الأمانة!! وهذا القول من الأقوال (الكفرية)، ولا يشك في هذا مسلم.

٢٨ ـ ومن ذلك قوله[٣]:

ما يُرتجى أحدٌ لمكرمةٍ ... إلا الإلهُ وأنت يا بدرُ

لقد أخطأ المتنبئ عندما ساوى بين ممدوحه وبين الله عز وجل بحرف (الواو) الذي يقتضي المشاركة والمساواة، وكان الصواب أن يعطف بحرف(ثم) الذي يُنزل المخلوق عن رتبة الخالق عز وجل. وعندما قال رجل للنبي ﷺ: ماشاء الله وشئت، قال له ﷺ: «أجعلتني لله نداً»[٤].

---

(١) ديوانه (١ / ٢٠١).

(٢) سورة التكوير، الآيتان: ٢٠ ـ ٢١ .

(٣) ديوانه (١ / ٢٠٧).

(٤) أخرجه أحمد، وصححه الألباني في صحيحه (١٣٩).

٢٩ ـ ومن ذلك قوله[١]:

حسبك الله ما تضل عن الحـ ـــق ولا يهتدي إليك أثامُ

فهو يدعي العصمة لممدوحه، فهو دائماً على الحق، وهو دائماً لايرتكب الآثام!

٣٠ ـ ومن ذلك قوله[٢]:

فأصبحت أستسقي الغمام لقبرها وقد كنتُ أستسقي الوغى والقنا الصما

فأحوال القبور وساكنوها لا يؤثر فيهم الأمطار ولا السيول، وإنما هي رحمة الله عز وجل ثم العمل الصالح، فمن عمل خيراً فُسح له في قبره، وأتاه من الجنة ما يسره، ولو كان مدفوناً وسط صحراء محرقة، ومن عمل شراً ضُيق عليه قبره، وآتاه الله من سموم النار ما يسوءه، ولو كان مدفوناً وسط حدائق ذات بهجة.

وقد أخبرﷺ عن المؤمن بعد موته بأنه «يُفسح له في قبره مدّ بصره» وأما الكافر والمنافق «يُضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه»[٣] نسأل الله العفو والعافية.

٣١ ـ ومن ذلك قوله[٤]:

أما وحَقِّكَ وهو غايةُ مقسمٍ للحق أنت وما سواك الباطل

وهذا قسم بغير الله، وهو شرك أصغر، حذرنا منه رسول الله ﷺ بقوله: «من حلف بغير الله فقد أشرك» وقال ﷺ: «من كان حالفاً فليحلف بالله

(١) ديوانه (١ / ٢١١).
(٢) ديوانه (١ / ٢١٩).
(٣) أخرجه أبو داود وغيره، وصححه الألباني في « أحكام الجنائز» (ص ١٥٩).
(٤) ديوانه (١ / ٢٢٥).

أو ليصمت» وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «لأن أحلف بالله كاذباً خير من أحلف بغير الله صادقاً» وهذا من كمال فهمه ـ رضي الله عنه ـ لأن الحلف بالله كاذباً معصية، والحلف بغيره ولو كان المرء صادقاً فيه شرك، وفرقٌ فيما بينهما.

والقسم بغير الله هو مما تساهل فيه الشعراء قديماً وحديثاً، فهم يقسمون بالمحبوب، وبصفاته الخَلقية والخُلقية قاصدين تعظيمه بزعمهم.

٣٢ ـ ومن ذلك قوله[1]:

وترى المروةَ والفتوَّةَ والأبوَّ ... ةَ في كل مليحة ضراتِها

هن الثلاث المانعاتي لذتي ... في خلوتي لا الخوف من تبعاتِها

فقد صرح المتنبئ هنا أن الذي يمنعه من اللذات ليس الخوف من الله عز وجل، وإنما هو المروءة والفتوة والأبوة. وكان الأجدر به أن يمتنع عن اللذات خوفاً من الله؛ ليكتب له أجر هذا الامتناع. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾[2].

٣٣ ـ ومن ذلك قوله[3]:

فآجرك الإلـه على عليلٍ ... بعثتَ إلى المسيحِ به طبيبا

وهذا يلحق بسابقه، ففيه تنقص لأنبياء الله ـ عليهم السلام ـ عندما يشبههم بغيرهم، أو يبتذل ذكرهم.

---

(١) ديوانه (١ / ٢٣٠).

(٢) سورة النازعات، الآيتان: ٤٠ ـ ٤١ .

(٣) ديوانه (١ / ٢٤١).

٣٤ ـ ومن ذلك قوله[١]:

يبنـي بـــه ربُنــا المعالـــي كمـا بكــم يغفــرُ الذنـوبا

والذنوب لاتُغفر بأحد، إنما يغفرها الله برحمته، قال تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥][٢].

٣٥ ـ ومن ذلك أنه يعتقد أن علياً ـ رضي الله عنه ـ هو الوصي بعد رسول الله ﷺ، وهذه عقيدة الشيعة الإمامية والزيدية، ويقول المتنبي في مدح طاهر ابن الحسين[٣]:

هو ابن رسـول الله وابن وصـيِّه وشِـبهُهُما شَبَّهَتُ بعد التجارب

٣٦ ـ وهو يذم أحد الأموات الذين يبغضهم بقوله[٤]:

قالوا لنا: مات إسحاق! فقلت لهم: هذا الدواء الذي يشفي من الحُمُقِ
إن مات مات بلا فقد ولا أسـفٍ أو عاش عاش بلا خلقٍ ولا خُلُقِ
منـه تعلـم عبدٌ شـقَّ هامتَـه خونَ الصديقِ ودسَّ الغدرِ في المَلَقِ
وحلـف ألـفِ يمين غيـر صـادقةٍ مطرودةٍ ككعوبِ الرمح في نسقِ
ما زلـت أعرفـه قـرداً بـلا ذنبٍ صفراً من الباس مملوءاً من النزقِ

---

(١) ديوانه (١ / ٢٦١).
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٥ .
(٣) ديوانه (١ / ٢٧٠).
(٤) ديوانه (١ / ٢٧٥).

كريشة في مهبِ الريح ساقطةٍ ... لا تستقر على حال من القلقِ

تستغرق الكفُ فوديه ومنكبَه ... فتكتسي منه ريح الجورب العرقِ

فسائلوا قاتليه كيف مات لهم ... موتاً من الضرب أو موتاً من الفرقِ

وهذا القول دليل على وقاحة المتنبئ، حيث تعرَّض للأموات في قبورهم بهذا الهجاء المر، والرسول ﷺ يقول: «إذا مات صاحبكم فدعوه، لاتقعوا فيه»[(١)].

٣٧ ـ ومن ذلك قوله[(٢)]:

ما رآها مكذب الرسل إلا ... صدق القول في صفات البُراق

فهو يشبه فرسه بالبراق الذي ركبه رسول الله ﷺ ليلة الإسراء والمعراج، وقال ﷺ عنه بأنه: «فوق الحمار ودون البغل، يقع خطوه عند انقضاء طرْفه..»[(٣)].

فالبراق خلق من خلق الله لايشبهها شيء من حيوانات الدنيا، مهما ادعى المتنبئ خلاف ذلك.

٣٨ ـ ومن ذلك قوله[(٤)]:

يا راحلاً كلُ من يودعه ... مودعٌ دينه ودنياه

---

(١) أخرجه أبو داود، وصححه الألباني في صحيحه (٢٨٥) أما حديث: «اذكروا محاسن موتاكم» فضعيف.

(٢) ديوانه (١ / ٢٧٨).

(٣) أخرجه البخاري ومسلم.

(٤) ديوانه (١ / ٢٩٠).

والراحل أو المسافر لا يأخذ معه إلا دينه هو، أما دين المودّعين فهو باقٍ معهم؛ لأنه مجموعة من الأقوال والأعمال الملازمة للإنسان.

وقد أمر ﷺ أن يُقال للمسافر عند سفره «أستودع الله دينك وأمانتك وخواتم عملك»[١].

لأنه محتاج إلى أن يحفظ الله دينه في سفره، لا أن يحفظ هو دين الآخرين، كما يزعم المتنبئ!

٣٩ ـ ومن ذلك قوله[٢]:

لحبُّ ابن عبدالله أولى فإنه به يُبدأ الذكرُ الجميلُ ويختمُ

والذي يُبدأ به الذكرُ الجميل ويُختم: الله ـ عز وجل ـ فقد علمنا رسوله ﷺ أن نبدأ أعمالنا باسمه تعالى، وعلمنا أن نختم ذلك بذكره تعالى، سواء بالحمد أوالاستغفار.

٤٠ ـ ومن ذلك قوله[٣]:

فلا موتَ إلا من سِنانِك يُتّقى ولا رزقَ إلا من يمينك يُقسَمُ

وأسباب الموت كثيرة كما قيل: تعددت الأسباب والموت واحد.

لا كما يزعم المتنبئ بأنه لا موت إلا من سنان ممدوحه.

---

(١) أخرجه أبو داود وغيره وصححه الألباني في صحيح أبي داود(٢٢٦٥).
(٢) ديوانه (٢ / ٥٣).
(٣) ديوانه (٢ / ٥٦).

وأما الرزق فهومن عند الله عز وجل، قال سبحانه: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾[١]. وقال﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾[٢]. ويصدق على المتنبئ قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾[٣]. فهو يعلم أنه لا رازق إلا الله، ثم ينسب ذلك إلى غيره.

٤١ ـ ومن ذلك قوله عن خيمة سيف الدولة[٤]:

فما اعتمد اللهُ تقويضَها ولكنْ أشار بما تفعلُ

وهذا من الافتراء على الله أنه أراد تقويضها قاصداً توجيه سيف الدولة إلى ملاقاة أعدائه!.

٤٢ ـ ومن ذلك قوله[٥]:

ولستُ أبالي بعد إدراكِيَ العلا أكان تُراثاً ما تناولتُ أم كسبا

فهو يهدف إلى العُلاَ، سواء ورثه من آبائه، أو كان كسباً له قد اجتهد في تحصيله، وهذا العُلاَ الذي يعنيه المتنبئ هو علو الصيت بين الناس، وتولي الضِيَع والإمارات، فهو الذي أجهد فيه نفسه، وضيع عمره ـ كما سبق ـ.

(١) سورة العنكبوت، الآية: ١٧ .
(٢) سورة فاطر، الآية:٣ .
(٣) سورة النحل، الآية: ٨٣ .
(٤) ديوانه (٢ / ٥٨).
(٥) ديوانه (٢ / ٧٧).

٤٣ ـ ومن ذلك قوله في ممدوحه[١]:

الذي ليس عنه مُغنٍ ولا منـــ ـــه بديـــل ولا لمـا رامَ حـــامِ

وهذا القول لا يصلح إلا لله عز وجل، فهو الذي ليس عنه مغنٍ، ولا منه بديل. كما قال ﷺ: «الحمد لله كثيراً طيباً مباركاً فيه غير مكفي ولامودَّع ولا مستغنىً عن ربنا»[٢].

٤٤ ـ ومن ذلك قوله[٣]:

فومن أحب لأعصينّك في الهوى قســـماً بـه وبحسنـه وبهائـه

وهذا قسم بغير الله، وقد مضى أنه محرم.

٤٥ ـ ومن ذلك قوله[٤]:

وكيف تعلك الدنيـا بشـيءٍ وأنت لعلـة الدنيـا طبيـبُ

وهذا من الغلو في المدح، حيث جعل ممدوحه طبيباً لجميع علل الدنيا، وهذا لا يكون إلا لله عز وجل، فهو «الطبيب»[٥] سبحانه، هو الذي يشفي عباده، ويصلح أحوالهم، كما قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[٦].

---

(١) ديوانه (٢ / ١٠٣).
(٢) أخرجه البخاري (٩ / ٥٨٠ فتح).
(٣) ديوانه (٢ / ١٠٣).
(٤) ديوانه (٢ / ١١٥).
(٥) ورد في قوله ﷺ: «الله الطبيب» أخرجه أبو داود وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٣٧).
(٦) سورة الشعراء، الآية: ٨٠ .

٤٦ ـ ومن ذلك قوله [١]:

تظل ملوكُ الأرض خاشعةً لـهُ تفارقـه هَلكى وتلقاهُ سـجَّدا

والسجود لغير الله لا يجوز ـ كما سبق ـ.

٤٧ ـ ومن ذلك قوله[٢]:

تخـرُ لـه القبائل سُـاجداتٍ وتحمـدُه الأسـنَّةُ والشِـفارُ

٤٨ ـ ومن ذلك قوله[٣]:

ومـا لاقنـي بلـدٌ بعدكـم ولا اعتضت من رب نعماي ربْ

ونقول لأبي الطيب: حتى الله لم تعتض به عن ممدوحك؟! قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾[٤]. فهو سبحانه رب النعم الذي يستحق التمجيد والتفرد بهذا المدح.

٤٩ ـ ومن ذلك قوله [٥]:

أيـا سـيفَ ربـك لا خَلقِـه ويـا ذا المكـارمِ لا ذا الشُـطَبْ

كيف يزعم المتنبئ أن سيف الدولة الحمداني هو سيف الله؟!

وهل كان سيف الدولة يقاتل الأعداء دفاعاً عن دين الله عز وجل، أم كان

---

(١) ديوانه (٢ / ١٢٣).
(٢) ديوانه (٢ / ١٥٦).
(٣) ديوانه (٢ / ١٩٨).
(٤) سورة النحل، الآية: ٥٣ .
(٥) ديوانه (٢ / ١٩٨).

دفاعاً عن أرضه ودياره؟! والحق أنه لا يُطلق هذا اللقب (سيف الله) إلا على من أطلقه رسول الله ﷺ عليه، كخالد بن الوليد ـ رضي الله عنه [١] ـ أما غيره فلا ندري أكان سيفاً لله أم سيفاً لمصالحه ودولته؟!

٥٠ ـ ومن ذلك قوله [٢]:

أغاية الدين أن تحفوا شواربكم يا أمةً ضحكت من جهلها الأممُ

ونحن نعلم كالمتنبئ أن الدين ليس غايته إحفاء الشوارب، وإنما هي سُنة وردت عن رسول الله ﷺ بقوله: «أحفوا الشوارب» [٣] فمن عمل بها فقد فاز بالأجر والمغنم، ومن خالفها فقد خالف سُنة النبي ﷺ، ومع ذلك لا يجوز لأبي الطيب أن يسخر من هذه السُنة النبوية بهذا القول الذي يوحي باحتقارها.

٥١ ـ ومن ذلك قوله [٤]:

فتمليكُ دِلَّيرٍ وتعظيمُ قدرِهِ شهيدٌ بوحدانيةِ اللهِ والعدلِ

وهذا أيضاً من الافتراء على الله بأنه عادلٌ إذ ملَّك ممدوح المتنبئ (دلير) وعظَّم قدره!.

---

(١) كما في قوله ﷺ عن غزوة مؤتة: «حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله...» أخرجه أحمد (٣ / ١١٣) والنسائي (٤ / ٢٦).
(٢) ديوانه (٢ / ٢٨٥).
(٣) أخرجه البخاري ومسلم.
(٤) ديوانه (٢ / ٢٨٤).

٥٢ ـ ومن ذلك قوله[١]:

جـاء نيـروزُنا وأنت مـــرادُهُ وَوَرَت بالـــذي أراد زنـــادُه

٥٣ ـ ومثله قوله[٢]:

عربـــي لســـانــه فلســـفيٌ رأيُـــهُ فارســـــيَّةٌ أعيــادُه

وهذا من الفرح بأعياد الفرس المشركين الذين يبتهجون بالنيروز[٣]، ويشاركهم في ذلك مدَّعو الإسلام «الرافضة» من أبناء الفرس، الذين يحنون إلى تراث آبائهم.

ومعلوم أن الفرح بأعياد الكفار وتهنئتهم بها حرامٌ شرعاً، قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:

«مخالطة غير المسلمين في أعيادهم محرّمة؛ لما في ذلك من الإعانة على الإثم والعدوان وقد قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[٤].

---

(١) ديوانه (٢ / ٢٩١).
(٢) ديوانه (٢ / ٢٩٢).
(٣) عيد النيروز عيد فارسي المنشأ أحدثه ملكهم جمشيد وهو عبارة عن ستة أيام تُقضى حوائج الأيام في الخمسة الأيام الأولى وأما اليوم السادس فيجعله الأكاسرة لخواصهم وأنسهم ويسمونه« النيروز الكبير» وهذا العيد يُعد رأس السنة الفارسية الشمسية وهويوافق الحادي والعشرين من شهر مارس من السنة الميلادية. انظر: مجلة ـ الأزهر عدد ١٠ ص ١٤٨٥ وشرح ثلاثيات المسند للسفاريني (١ / ٥٧٨)، وحاشية الدكتور عبدالله التركي والحلو على « المغني» لابن قدامة (٤ / ٤٢٨).
(٤) سورة المائدة، الآية: ٢ .

ولأن هذه الأعياد إن كانت لمناسبات دينية؛ فإن مشاركتهم فيها تقتضي إقرارهم على هذه الديانة، والرضى بما هم عليه من الكفر، وإذا كانت الأعياد لمناسبات غير دينية؛ فإنه لو كانت هذه الأعياد في المسلمين ما أقيمت، فكيف وهي في الكفار؟ لذلك قال أهل العلم: إنه لا يجوز للمسلمين أن يشاركوا غير المسلمين في أعيادهم، لأن ذلك إقرار ورضى بما هم عليه من الدين الباطل ثم إنه معاونة على الإثم والعدوان»[(١)].

٥٤ ـ ومن ذلك قوله[(٢)]:

لنا مذهب العُبّاد في ترك غيرِهِ ... وإتيانه نبغي الرغائب بالزهدِ

رجونا الذي يرجون في كل جنةٍ ... بأرجان حتى ما يئسنا من الخلدِ

وفي هذين البيتين أفصح المتنبئ بكل وضوح عن هدفه من مدح الممدوح؛ إذ هو يبحث عن (الرغائب) لا غير، وهو يُشبه فعله هذا بفعل العبَّاد الذين يخلصون العبادة لله عز وجل طالبين جنته، هاربين من ناره، فالمتنبئ قد حقق (الإخلاص) في قصد الممدوح وحده دون غيره مبتغياً (رغائبه)!.

٥٥ ـ ومن ذلك قوله[(٣)]:

فإن يكن المهديُّ من بان هديُهُ ... فهذا وإلا فالهدى ذا فما المهدي؟

يعللنا هذا الزمان بذا الوعدِ ... ويخدع عما في يديه من النقدِ

(١) مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين (١ / ٦١ ـ ٦٢) دار الوطن للنشر، الرياض.
(٢) ديوانه (٢ / ٣٠٠).
(٣) ديوانه (٢ / ٣٠١).

وهذا القول فيه سخرية بعقيدة ثابتة عند أهل السُّنة والجماعة، وهي عقيدة خروج المهدي، وقال ﷺ: «يكون في أمتي المهدي»[(١)].

أما المتنبئ فمهديه غير مهدي المسلمين، وإنما هو ممدوحه الذي قد بان هديه، كما يزعم شاعر المديح!

٥٦ ـ ومن ذلك قوله[(٢)]:

النـاس كالعـابدين آلهـة وعبـدهُ كالموحـدِ اللـهَ

وهذا من الغلو في المدح الذي برع فيه المتنبئ، ولو كان على حساب دينه وعقيدته، فهو هنا يشبه حاله مع ممدوحه كحال المخلصين مع الله عز وجل.

٥٧ ـ ومن ذلك قوله[(٣)]:

ملاعب جِنَّةٍ لو سـار فيهـا سـليمانٌ لسـارَ بترجـمانِ

وهذا تبذلٌ لاسم نبي الله سليمان ـ عليه السلام ـ وكذب عليه، حيث ادعى أنه سيحتاج إلى ترجمان عندما يسير في هذا الشعب، والله قد أخبرنا بأنه قد علّمه منطق الحيوانات. وقال سبحانه عنه ـ عليه السلام ـ: ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾[(٤)].

---

(١) أخرجه ابن ماجه، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه(٣٢٩٩) وانظر: رسالة« الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي» ورسالة« عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر» كلاهما للشيخ عبدالمحسن العباد ـ حفظه الله ـ وانظر: «السلسلة الصحيحة» للألباني (٢٣٧١).

(٢) ديوانه (٢ / ٣٠٧).

(٣) ديوانه (٢ / ٣٠٨).

(٤) سورة النمل، الآية: ١٦ .

٥٨ ـ ومن ذلك قوله[١]:

أبوكم آدمٌ سنَّ المعاصي ... وعلَّمكم مفارقة الجنانِ

وهذا تهور من المتنبئ، حيث زعم أن آدم ـ عليه السلام ـ قد سنَّ لنا المعاصي وارتضاها، وهو ـ عليه السلام ـ إنما أذنب ذنباً تاب منه، ثم قدَّر الله عليه مفارقة الجنة، ثم ابتلاه بهذه الدار النكدة؛ ليعود بشوق عظيم إلى الجنة مرة ثانية.

٥٩ ـ ومن ذلك قوله[٢]:

فإن الناس والدنيا طريق ... إلى من ما له في الناس ثانِ

وهذا كذب من الشاعر، فالذي ماله في الناس ثانٍ هو رسول الله ﷺ لاممدوح المتنبئ.

٦٠ ـ ومن ذلك قوله[٣]:

ولولا كونكم في الناس كانوا ... هُراءً كالكلام بلا معانِ

وهذا يلحق بما مضى من الغلو في المديح.

٦١ ـ ومنه أيضاً قوله[٤]:

ولم أقل مثلُك أعني بهِ ... سواك يا فرداً بلا مُشبِهِ

هذا ما تيسر لي من ملاحظات على ديوان المتنبئ من أخطاء، تجاوز فيها حدود الشرع، أحببت أن لا يتسامح فيها قراؤه ومحبوه، أو يغضوا الطرف عنها.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين

---

(١) ديوانه (٢ / ٣٠٩).
(٢) ديوانه (٢ / ٣١٠).
(٣) ديوانه (٢ / ٣١٢).
(٤) ديوانه (٢ / ٣٢٧).



الكلمة البليغة سواء أكانت نثراً أم شعراً لها في السمع لذة، وفي العقول سحر، وأساطين البيان حفروا كلماتهم في ديوان التاريخ، وفي ذاكرة الأجيال؛ لأن الإبداع له خلود، والتفوق له ذيوع، والتفرد له امتياز.

وفي هذا الكتاب نعيش في عالم البيان مع أسطورة البيان وكبير أساطين الشعر مع «أبو الطيب المتنبي» الذي انصهر مع الكلمة، وملك ناصية البيان، وأُشرب في قلبه الفصاحة ، وغلى مرجل فكره بجواهر القول، فجاء بيانه رائعاً، وألفاظه جزلة، وعرضه للأفكار بارعاً؛ كما يُجلّي الكتاب لرواد الإبداع سحر البيان وحكمة الشعر [illegible] ولا ينسى هناته الشعرية، أما أخلاقه ومذهبه الشرعي فل[illegible] شرعية تعطيه ما له، وتحكم عليه بما يستحق.

ومكتبة العبيكان بنشرها هذا الكتاب فإنما تثري المك[illegible] بسفر فريد في بابه.




ردمك: ٩-١١٨-٤٠-٩٩٦٠
6000612